كَيْفَ يُعِيدُ ذِكْرُ اللَّهِ بِنَاءَ الإِنْسَانِ؟



رَدَّادُ السَّلَّامِيُّ

فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ

هِنْدَسَةُ الحُضُورِفِي عَالَمِ النِّسْيَانِ

تَأَمُّلَاتٌ فِي سِرِّ الذِّكْرِ وَأَثَرِهِ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الإِنْسَانِ

رَدَّادُ السَّــلَّامِيُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (فاذكروني أذكركم)

المُقَدِّمَةُ الكُبْرَى

حينَ يفتحُ اللهُ للإنسانِ بابَ الذِّكْر

ليست آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ آيةً عابرةً في باب الفضائل، ولا جملةً وعظيةً تُستدعى عند الحديث عن الأوراد والأذكار فحسب، بل هي من الآيات التي تكشف للإنسان طبيعة الصلة بين العبد وربّه، وتضعه أمام وعدٍ إلهيٍّ مذهل، لا يقاس بموازين البشر، ولا يُفهم على وجهه الأعلى إلا إذا خرج الإنسان من ضيق التصور المعتاد للعبادة إلى سعة المعنى القرآني الذي يجعل العمل الصغير في صورته الظاهرة بابًا إلى تحولات كبرى في الوجود والنفس والمصير.

فالذِّكر في القرآن ليس مجرد حركة لسان، ولا تكرار ألفاظ، ولا انفعالًا مؤقتًا يمرّ على القلب ثم ينتهي أثره بانتهاء الصوت، بل هو عودة الإنسان إلى مركزه الأول، واسترداد القلب من التبعثر، وإعادة ترتيب الوعي حين تختطفه الهموم، وتتنازعه المخاوف، وتوزعه الرغبات، وتنهكه كثرة الصور والأحداث والأصوات. إن الإنسان إذا غفل لا يفقد كلمةً من الكلمات، بل يفقد موضعه من الحقيقة؛ يغدو حاضر الجسد غائب المعنى، ممتلئًا بالأشياء فارغًا من النور، يسمع كثيرًا ولا ينصت إلى ما ينقذه، ويتحرك كثيرًا ولا يهتدي إلى الجهة التي تستحق أن يتحرك إليها.

ومن هنا تأتي الآية لا لتضيف عبادةً إلى قائمة العبادات، بل لتكشف عن قانونٍ عظيم من قوانين الحياة الإيمانية: أن الإنسان لا ينجو من النسيان إلا بالذكر، ولا يخرج من الوحشة إلا بالصلة، ولا يجد مركزه وسط اضطراب العالم إلا حين يربط قلبه بالله، ذاكرًا معظمًا محبًا خائفًا راجيًا، فيكون ذكره الضعيف، بما فيه من فقر ونقص وانكسار، سببًا لذكر الله له بما يليق بجلاله وكماله وفضله ورحمته.

﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ ليست معادلة كمية، ولا تبادلًا متماثلًا بين طرفين، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإنما هي كرمٌ إلهيٌّ يرفع فعل العبد المحدود إلى أفقٍ لا يبلغه العبد بجهده وحده. فالعبد يذكر ربّه بلسانٍ قد يضعف، وقلبٍ قد يغفل، ونيةٍ قد تحتاج إلى تجديد، أما ذكر الله لعبده فهو ذكر ربٍّ عليم رحيم لطيف كريم، لا يخفى عليه موضع الألم، ولا مقدار الافتقار، ولا رعشة القلب حين يقول صاحبه في خفاء: يا رب.

وهنا ينبغي أن نقف طويلًا؛ لأن الآية تقلب موازين التصور البشري المعتاد. الإنسان في الدنيا يظن أن أعظم ما يناله أن يُذكر بين الناس، وأن يبقى اسمه في ذاكرة الجماعات، وأن تتحدث عنه الألسن، وأن يحضر في المجالس والكتابات والآثار، لكن القرآن يردّ الإنسان إلى المعيار الأعلى: ليست الكرامة الكبرى أن يذكرك الناس، فقد يذكرك الناس بجهل، وينسونك بعجلة، ويمدحونك لهوى، ويذمونك لهوى، وإنما الكرامة أن يفتح الله لك باب ذكره، ثم يعدك وعدًا لا يشبه وعود الخلق: **اذكرني أذكرك**.

ما أعظم الفرق بين أن يطلب الإنسان الاعتراف من الأرض، وبين أن يطلب القبول من رب الأرض والسماء. وما أبعد المسافة بين قلبٍ يطارد صورته في أعين الناس، وقلبٍ وجد سكينته في أن يكون موصولًا بالله، مستندًا إلى عنايته، داخلًا في دائرة فضله، عالمًا أن الهمسة التي لا يسمعها أحد لا تضيع عند من يعلم السر وأخفى.

إن الذكر بهذا المعنى ليس هروبًا من الواقع، بل هو أعلى درجات اليقظة تجاه الواقع؛ لأن الغافل لا يرى الواقع كما هو، بل يراه من خلال خوفه، وجرحه، ورغبته، وقلقه، وتضخم ذاته، فيكبر الصغير في عينه، ويصغر العظيم في قلبه، وتتحول الأسباب إلى آلهة نفسية تتحكم في شعوره، وتصبح كلمات الناس أقدارًا، وخسارات الحياة نهايات، وضيق الأيام حكمًا نهائيًا على المستقبل. ثم يأتي الذكر فيعيد تعريف الواقع: الله أكبر من الخوف، وأوسع من الأزمة، وأرحم من الفقد، وأعلم بما خفي، وألطف بما جرى، وأبقى من كل ما يفنى.

وهذا هو السر الذي يجعل الذكر طمأنينة لا تخديرًا، ويقظة لا غيبوبة، وقوة لا انسحابًا. فالذاكر لا ينكر الألم، لكنه يضع الألم في سياقه الصحيح؛ ولا يلغي الأسباب، لكنه يمنعها من أن تستعبد قلبه؛ ولا يهرب من الدنيا، لكنه لا يسمح لها أن تحتل مساحته الداخلية كلها. إنه يعيش في العالم، لكنه لا يجعل العالم ربَّه، ويتعامل مع الأسباب، لكنه لا ينسى مسببها، ويرى حركة الأيام، لكنه يعلم أن فوق الحركة تدبيرًا إلهيًا لا يعبث ولا يظلم ولا ينسى.

ولهذا كان الذكر إعادة بناء للإنسان من داخله. إنه ينقل الوعي من التشتت إلى المركز، ومن تعدد المخاوف إلى وحدانية التوكل، ومن ضجيج الخارج إلى يقظة القلب، ومن عبودية الأنا إلى رحابة العبودية لله، ومن الفراغ الوجودي إلى امتلاء المعنى، ومن النسيان الذي يبدد الروح إلى الحضور الذي يعيد إليها اتزانها. وليس عجيبًا بعد ذلك أن يكون الذكر قرين الطمأنينة، كما قال الله تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾؛ لأن القلب لا يطمئن حين يُعطى تفسيرًا عابرًا للألم، بل حين يعود إلى الأصل الذي منه يستمد المعنى والثبات والرجاء.

هذا الكتيّب ليس كتابًا في عدّ الأذكار، ولا في ترتيب الأوراد، مع جلالة ذلك وضرورته، وإنما هو محاولة لفهم السر الداخلي للذكر: كيف يعمل في الإنسان؟ كيف يعيد هندسة وعيه؟ كيف يحرر قلبه من احتلال العالم؟ كيف ينقله من كونه مشتتًا بين الأشياء إلى كونه عبدًا موصولًا بالله؟ كيف يصير الذكر بابًا إلى القوة، لا مجرد عزاء؛ وإلى البصيرة، لا مجرد راحة؛ وإلى حضور القلب، لا مجرد حركة لسان؟

إننا لا نريد أن نكتب عن الذكر كعادةٍ صالحةٍ تُضاف إلى اليوم، بل كقوةٍ قرآنيةٍ تعيد ترتيب اليوم كله، بل تعيد ترتيب الإنسان نفسه. فحين يقول العبد: سبحان الله، فهو لا ينطق لفظًا معزولًا، بل يطهّر تصوره من كل نقصٍ يتوهمه في تدبير الله. وحين يقول: الحمد لله، فهو لا يردد ثناءً عامًا، بل يعيد تدريب قلبه على رؤية النعمة وسط الابتلاء، والحكمة وسط الغموض، والفضل وسط ما يظنه الناس حرمانًا. وحين يقول: الله أكبر، فهو لا يعلن جملةً صوتيةً، بل يهدم الأصنام النفسية التي كبرت في داخله: الخوف، والناس، والمستقبل،

والخذلان، والمرض، والفقد، والانتظار. وحين يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فهو لا يستسلم للعجز، بل يضع عجزه في موضعه الصحيح، ويستند إلى القوة التي لا تنفد.

فالذكر ليس تكرارًا للكلمات، بل إعادة تربية للمعاني في القلب.

ولعل أعظم ما في آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ أنها لا تترك الإنسان عند حدود تكليفه، بل ترفعه إلى شرف الوعد. لم يقل سبحانه: فاذكروني فقط، مع أن الأمر وحده كافٍ؛ لأنه أمر الله، ولكن جاء الوعد بعد الأمر، ليعلم العبد أن العبادة ليست طريقًا يمشيه وحده، وأن الله لا يدعو عبده إلى الذكر ليبقى العبد في فراغ، بل ليدخله في صلةٍ أوسع من تصوره، وأكرم من عمله، وأبقى من عمره.

إنها آية تختصر مأساة الإنسان ونجاته:
مأساته أنه ينسى.
ونجاته أن يذكر.
وشرفه أن يذكره الله.

الفَصْلُ الأَوَّل

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾: الوَعْدُ الَّذِي يَكْسِرُ عُزْلَةَ الإِنْسَان

يقف الإنسان في هذا الوجود بين اتساعٍ هائل وضعفٍ ظاهر؛ حوله كونٌ لا يحيط به، وزمنٌ لا يستطيع إيقافه، وأقدارٌ لا يملك دفعها كلها، وناسٌ لا يملك قلوبهم، ومستقبلٌ لا يرى تفاصيله، وماضٍ لا يقدر على استرجاعه، ونفسٌ تتقلب عليه بين خوفٍ ورجاء، وقوةٍ وانكسار، ويقينٍ وذهول. ومن هنا تنشأ عزلة الإنسان العميقة، لا عزلة المكان، بل عزلة المعنى؛ أن يشعر أنه وحيد في مواجهة ما لا يقدر عليه، وأن صوته يضيع في زحام الوجود، وأن قلبه بما فيه من ندوبٍ ورجاءاتٍ ومخاوف لا يجد من يفهمه على الحقيقة.

ثم تأتي الآية: **﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾**.

كأنها تفتح في جدار العزلة نافذةً إلى السماء، وتقول للإنسان: لست متروكًا في هذا الاتساع، ولست رقمًا ضائعًا في مجرى الأيام، ولست كائنًا عابرًا لا يُرى ولا يُسمع؛ إن لك بابًا إلى الله، وإن ذكرك لربك ليس صوتًا يتبدد في الهواء، بل عبادةٌ تصعد، وصلةٌ تنعقد، ووعدٌ يتنزل أثره على القلب والحياة.

وليس المقصود أن الله لا يعلم العبد حتى يذكره العبد، تعالى الله عن ذلك؛ فعلم الله محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولكن المقصود أن للذكر منزلةً خاصة من العناية والرحمة والثواب والتوفيق، وأن العبد حين يذكر ربه يدخل في مقامٍ من الصلة ليس كحال الغافلين. فذكر الله

للعبد ذكرُ فضلٍ وقبولٍ ورحمةٍ وهدايةٍ وثناءٍ بما يليق بجلاله، لا يشبه ذكر المخلوقين بعضهم لبعض، ولا يُقاس بلغة البشر القاصرة.

إن أعظم ما تعالجه هذه الآية في الإنسان هو شعوره بأنه منسي. والنسيان هنا ليس أن يغيب اسمه عن الناس، بل أن يشعر أن حياته بلا سندٍ أعلى، وأن آلامه بلا شاهدٍ رحيم، وأن جهده الصالح بلا أفق، وأن دموعه تسقط في الفراغ. فإذا سمع قوله تعالى: ﴿**أَذْكُرْكُمْ**﴾، انكسر هذا الوهم من جذره؛ لأن العبد يعلم عندها أن ما كان يظنه صغيرًا ليس صغيرًا عند الله إذا صدق فيه، وأن ما كان يظنه خفيًا ليس غائبًا عن علم الله، وأن ما كان يظنه ضائعًا محفوظٌ عند من لا يضيع عنده مثقال ذرة.

وهذه الآية لا تمنح الإنسان مجرد عزاء، بل تمنحه هوية جديدة. فالإنسان في غفلته يعرّف نفسه بما يملكه، وبما يقوله الناس عنه، وبما حققه في الدنيا، وبما فاته منها، فإذا ذكر الله أعاد تعريف نفسه من جديد: أنا عبدٌ لله، مخلوقٌ بعلمه، قائمٌ برزقه، محفوظٌ بلطفه، راجعٌ إليه، لا يكتمل وجودي إلا بمعرفته وعبادته وذكره. وكل تعريف آخر لا يستند إلى هذه الحقيقة يبقى تعريفًا ناقصًا، ينهار عند أول فقدٍ كبير، أو خذلانٍ قاسٍ، أو خوفٍ عميق.

ومن تأمل الآية وجد أنها تبدأ من العبد وتنتهي إلى الله: **اذكروني**، ثم **أذكركم**. ولكن من تأمل أعمق علم أن البداية نفسها من الله؛ لأنه هو الذي أمر، وهو الذي هدى، وهو الذي أيقظ القلب، وهو الذي حبّب إلى العبد ذكره، وهو الذي فتح له باب الرجوع. فالعبد لا يذكر ربه إلا بتوفيق سابق، ولا يتحرك لسانه

بالذكر إلا لأن رحمة الله سبقته، ولا يخطر في قلبه أن يقول: يا الله، إلا وقد بلغه من فضل الله ما يوقظه من غفلته.

ولهذا يكون الذكر في حقيقته دائرًا بين فضلين: فضلٍ سابقٍ يوقظ العبد إلى الذكر، وفضلٍ لاحقٍ يكرمه بثمرة الذكر. وبين الفضلين يقف العبد فقيرًا، لا يرى لنفسه حولًا ولا قوة، بل يرى أن الذكر نفسه نعمة تحتاج إلى شكر، وأن الشكر ذكرٌ آخر، وأن العبد كلما دخل بابًا من أبواب القرب وجد أن الفضل كله لله.

وهنا تظهر هندسة الآية المدهشة:
أمرٌ يوقظ العبد: **فاذكروني**.
ووعدٌ يرفع العبد: **أذكركم**.
وبين الأمر والوعد يولد الإنسان المؤمن من جديد.

فالذكر ليس إضافة هامشية إلى الحياة، بل هو قلب الحياة حين تُفهم على نور الوحي. إنه الذي يمنع الإنسان من التحول إلى كائنٍ مستهلكٍ بالأحداث، مأكولٍ بالمخاوف، مستعبدٍ لنظرات الناس. إنه يعيد ترتيب الداخل؛ فلا تعود الدنيا أكبر من الله في قلبه، ولا يعود الخلق أملك بمصيره من خالقه، ولا يعود الفقد نهاية المعنى، ولا يعود الألم دليلًا على الغياب، بل قد يكون الألم نفسه بابًا إلى ذكرٍ أصدق، وانكسارٍ أطهر، ومعرفةٍ أعمق.

إن العبد قد يذكر الله في الرخاء، فيكون الذكر حفظًا من البطر. وقد يذكره في الشدة، فيكون الذكر نجاة من اليأس. وقد يذكره في الخلوة، فيكون الذكر بناءً للسريرة. وقد يذكره بين الناس، فيكون الذكر إعلانًا لهوية القلب. وقد يذكره

وهو يعمل، فيتحول العمل من عادةٍ إلى عبادة. وقد يذكره وهو عاجز، فيصير العجز باب افتقار. وقد يذكره وهو قوي، فتتهذب القوة ولا تطغى.

هكذا يدخل الذكر في نسيج الحياة كله، لا كزينةٍ روحيةٍ على أطرافها، بل كروحٍ تسري في معناها. وليس الذاكر من قال الألفاظ ثم بقي قلبه عبدًا للخوف والناس والأشياء، بل الذاكر حقًا من بدأت الألفاظ تعيد تشكيل رؤيته، حتى إذا قال: الله أكبر، صغر في قلبه ما كان يستعبده؛ وإذا قال: الحمد لله، رأى النعمة حيث كان لا يرى إلا النقص؛ وإذا قال: سبحان الله، تنزه تصوره عن سوء الظن بربه؛ وإذا قال: أستغفر الله، رجع من غروره إلى حقيقته؛ وإذا قال: لا إله إلا الله، تحررت روحه من كل مركزٍ زائفٍ كان ينازع الله في قلبه.

ومن هنا نفهم أن الذكر لا يكسر عزلة الإنسان فقط لأنه يمنحه شعورًا بالأنس، بل لأنه يعيده إلى الحقيقة الكبرى: أن الإنسان لم يُخلق ليعيش منفصلًا عن ربه، ولا ليحمل العالم وحده، ولا ليجعل قلبه مستودعًا للفزع والرغبات والصور المتناثرة. خُلق الإنسان ليعرف، ويعبد، ويذكر، ويشكر، ويرجع، فإذا فعل ذلك عاد إلى نظامه الفطري، كما يعود الماء إلى مجراه، والنور إلى موضعه، والقلب إلى قبلته.

إن العزلة التي يكسرها الذكر ليست عزلة الجسد فقط؛ فقد يكون الإنسان بين أهله وأصحابه وهو شديد الوحشة، وقد يكون في مكانٍ بعيدٍ وحده وهو مأنوس القلب بالله. العزلة الحقيقية أن يغيب الله عن وعي الإنسان، لا غياب علمٍ من الله، بل غياب ذكرٍ من قلب العبد؛ فإذا غاب الذكر تضخمت الدنيا،

واستطال الخوف، واستوحش القلب، واستبدت به الأسباب. فإذا عاد الذكر عاد التوازن، وعاد الضوء، وعاد القلب يعرف أن فوق كل ضيقٍ ربًا واسع الرحمة، وفوق كل خوفٍ ربًا بيده الأمر، وفوق كل فقدٍ ربًا لا يضيع عنده شيء.

ولذلك كان قوله تعالى: ﴿**أَذْكُرْكُمْ**﴾ من أعظم ما يربّي الكرامة الإيمانية في النفس. فالعبد لا يستمد قيمته النهائية من الحشود، ولا من الألقاب، ولا من الصور، ولا من المدح، ولا من الحضور في ذاكرة الناس، بل يستمدها من عبوديته لله ومن صلته به. ومن وجد هذا المعنى لم يعد فقيرًا إلى اعتراف الناس كما كان، ولم يعد سقوطه من أعين بعضهم نهايةً له، ولم يعد نسيانهم له إلغاءً لقيمته؛ لأن له بابًا آخر، أعلى وأبقى وأصدق: أن يذكر الله، وأن يرجو أن يكون في موضع ذكر الله وفضله ورحمته.

وما أضيق حياة الإنسان حين يعيش ليُذكر في الأرض فقط. وما أوسعها حين يعلم أن ذكر الله أعظم من كل ذكر، وأن شرف العبد ليس في أن يرتفع اسمه بين الخلق، بل في أن يرتفع قلبه إلى ربه ذاكرًا شاكرًا منيبًا.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن هذه الآية تؤسس لثورة هادئة في داخل الإنسان. ثورة لا ضجيج فيها، لكنها تغيّر كل شيء؛ تغيّر مركز القلب، ومصدر الطمأنينة، ومعيار القيمة، وطريقة النظر إلى الألم، وحجم الدنيا، وموقع الناس، ومعنى العبادة. فالإنسان قبل الذكر يظن أنه يواجه الحياة بذاته وحدها، فإذا دخل في الذكر علم أنه عبدٌ ممدودٌ باللطف، محاطٌ بالعلم، مأمورٌ

بالرجوع، موعودٌ بالذكر، وأن الطريق إلى الله ليس مغلقًا، بل يبدأ أحيانًا بكلمة صادقة تخرج من قلبٍ منكسر.

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾:

إنها ليست وعدًا للسان وحده، بل وعدٌ للإنسان كله؛ إذا عاد إلى الله بقلبه ولسانه وعمله، أعاد الله إليه من معاني الحياة ما كان قد بدده النسيان.

وليست نداءً لأهل العافية وحدهم، بل لأهل الخوف والوجع والفقد والانتظار والانكسار؛ لأن الذكر لا يحتاج إلى دنيا مكتملة حتى يبدأ، بل يبدأ غالبًا حيث ينكشف فقر الإنسان، وحيث يعلم أن كل ما سوى الله لا يكفيه.

ولذلك فإن الذاكر ليس إنسانًا يضيف كلماتٍ إلى يومه، بل إنسان يعيد بناء يومه حول الله. لا بمعنى الانقطاع عن العمل، ولا ترك الأسباب، ولا تعطيل السعي، ولكن بمعنى أن تكون الأسباب في يده لا في قلبه، وأن يكون الناس في مواضعهم لا في مقام لا يليق إلا بالله، وأن تكون الدنيا ممرًا لا معبودًا نفسيًا، وأن يكون القلب معمورًا بذكر الله، لا محتلًا بالخوف من خلق الله.

بهذا المعنى يكسر الذكر عزلة الإنسان: لا بأن يكثر حوله الناس، بل بأن يرده إلى ربه. ولا بأن يلغي الألم، بل بأن يمنحه معنىً أعلى من الألم. ولا بأن يبدد الغيب، بل بأن يجعل الإيمان بالغيب نورًا يعمل في الحاضر. ولا بأن يعطيه ضماناتٍ بشريةً ضد كل ابتلاء، بل بأن يزرع فيه يقينًا أن الابتلاء نفسه لا يقع خارج علم الله وحكمته ورحمته.

فإذا استقر هذا المعنى في القلب، لم يعد الذكر وظيفةً مؤقتةً يؤديها العبد ثم ينصرف عنها، بل صار طريقةً في الوجود؛ يرى بها، ويسمع بها، ويزن

بها، ويصبر بها، ويرجو بها، ويمضي بها في الحياة غير فارغٍ من الداخل، ولا مستسلمٍ لسطوة العالم.

إنه ليس مجرد ذاكر.
إنه إنسان عاد إلى موضعه الصحيح:
عبدٌ بين يدي ربّه، يذكره فقرًا ومحبةً وتعظيمًا، ويرجو من فضله ذكرًا ورحمةً وتوفيقًا وطمأنينة.

وهنا تبدأ الرحلة.

الفَصْلُ الثَّانِي

الذِّكْرُ لَيْسَ لَفْظًا عَابِرًا: كَيْفَ يُعِيدُ ذِكْرُ اللهِ بِنَاءَ المَشْهَدِ الدَّاخِلِيِّ؟

ليس الذكر في حقيقته القرآنية مجرد ترديدٍ صوتيٍّ لألفاظٍ مباركة، وإن كان اللسان بابًا عظيمًا من أبوابه، بل هو حركةٌ عميقةٌ في بنية الإنسان؛ تبدأ من الكلمة، ثم تتجاوزها إلى الوعي، ثم تستقر في القلب، ثم تعيد ترتيب علاقة النفس بالله، وبالعالم، وبالألم، وبالمستقبل، وبالذات. فالذكر لا يعمل في الإنسان كما تعمل الكلمات العادية، بل يعمل بوصفه اتصالًا بالوحي، واستدعاءً للحقيقة الكبرى، وإرجاعًا مستمرًا للإنسان إلى أصله: أنه عبدٌ لله، قائمٌ بفضله، مفتقرٌ إليه، راجعٌ إليه، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا بما شاء الله.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾ الرعد: ٢٨

هذه الآية لا تقول إن القلوب تفرح فقط بذكر الله، ولا إنها ترتاح راحةً عابرة، بل تستعمل لفظًا مخصوصًا: **تطمئن**. والطمأنينة غير اللذة، وغير الانشغال، وغير النسيان المؤقت للألم. الطمأنينة هي سكون القلب إلى أصله بعد اضطراب، وعودته إلى مركزه بعد تشتت، وشعوره أنه ليس متروكًا للعبث، ولا مسلمًا للفوضى، ولا محكومًا بالأسباب وحدها. إنها ليست إلغاءً للوجع، بل وضع الوجع في حضرة معنى أعلى منه؛ وليست إنكارًا للخوف، بل إدخال

الخوف تحت سلطان الإيمان؛ وليست غيابًا للحركة، بل انتظام الحركة في الداخل بعد أن كانت النفس مبددة بين الجهات.

ومن دقة الآية أنها لم تقل: تطمئن القلوب بالدنيا، ولا بالمال، ولا بالناس، ولا بالنجاح، ولا بزوال كل مشكلة؛ لأن هذه الأشياء قد تمنح راحةً نسبية، لكنها لا تمنح طمأنينةً أصلية. قد يسكن الإنسان إذا حلّت مشكلة، لكنه يقلق أمام مشكلة أخرى. وقد يفرح إذا مدحه الناس، لكنه يرتبك إذا ذموه. وقد يطمئن لمالٍ في يده، لكنه يخاف عليه أو يخاف فقده. أما ذكر الله، فإنه يمسّ أصل القلق لا ظاهره؛ لأنه لا يربط القلب بشيءٍ قابلٍ للزوال، بل يربطه بالحيّ القيوم، سبحانه وتعالى.

فالذكر يعيد تعريف الواقع. وهذه من أعظم أسراره.

الغافل يرى الواقع مشهدًا مغلقًا: أسبابٌ تضغط، وناسٌ يتحكمون، ومستقبلٌ غامض، وماضٍ جارح، ونفسٌ مثقلة. أما الذاكر فيرى الواقع نفسه، لكنه لا يراه وحده؛ يرى معه علم الله، ورحمة الله، وحكمة الله، ولطف الله، ووعد الله، ومآل الأمر إلى الله. ولذلك لا يتغير الواقع الخارجي دائمًا بمجرد الذكر، ولكن يتغير مركز الرؤية، فإذا تغير مركز الرؤية تغيّر معنى الواقع كله.

وهذا هو الفرق بين من يعيش تحت ضغط الحدث، ومن يعيش تحت نور المعنى.

قد يقع البلاء على اثنين؛ أحدهما يراه نهاية، والآخر يراه ابتلاءً داخل تدبير الله. وقد ينتظر اثنان الفرج؛ أحدهما ينتظر وهو يذوب في القلق، والآخر

ينتظر وهو يقول: **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**. وقد يفقد اثنان شيئًا عزيزًا؛ أحدهما يرى الفقد عدمًا محضًا، والآخر يرى أن ما عند الله أبقى، وأن الله لا يضيع أجر الصابرين. فالحدث واحد في الظاهر، لكن القلب الذي يذكر الله لا يسكن الحدث كما يسكنه القلب الغافل.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿**وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ الكهف: ٢٤

هذه الآية أوسع من مجرد علاج نسيانٍ عارض في قولٍ أو وعد، مع أن هذا داخل في معناها. إنها تكشف قانونًا من قوانين النفس: أن النسيان البشري لا يُعالج بمجرد استرجاع معلومة، بل بالعودة إلى الله. فالإنسان قد ينسى موعدًا، وقد ينسى كلمة، وقد ينسى شأنًا من شؤونه، لكن النسيان الأخطر أن ينسى مركزه، أن ينسى فقره، أن ينسى أن أمره ليس إليه وحده، أن ينسى أن الغد ليس ملكًا له، وأن الحاضر ليس قائمًا بقوته، وأن المستقبل لا ينفتح إلا بمشيئة الله.

ولذلك يأتي الذكر هنا كإعادة ضبط للوعي. إذا نسيت، فاذكر ربك؛ لأن ذكر الرب يعيد الإنسان إلى موضعه الصحيح، ويمنعه من الغرور الخفي الذي يتسلل إلى النفس حين تظن أنها تدبر كل شيء، وتملك كل شيء، وتضمن كل شيء. وما أكثر ما ينسى الإنسان ربَّه لا لأنه أنكر بلسانه، بل لأنه تصرف كأنه مكتفٍ بنفسه، كأن الغد تحت يده، وكأن الأسباب مطلقة، وكأن قلبه قادرٌ وحده على احتمال الحياة.

ثم يأتي الذكر فيكسر هذا الوهم الهادئ.

ولذلك كان من أعظم أذكار النبي ﷺ: «**يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**». هذا الذكر النبوي ليس دعاءً للحاجة فحسب، بل هو بيانٌ كامل لحقيقة الإنسان: أن النفس إذا وُكِلت إلى نفسها طرفة عين ضاعت، وأن صلاح الشأن كله لا يكون إلا من الله، وأن العبد مهما بلغ من عقلٍ وتجربةٍ وقوة، يبقى محتاجًا إلى القيوم الذي تقوم به السماوات والأرض، وإلى رحمة الحي الذي لا يموت.

تأمل قوله: «**ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**».

إنه دعاء يهدم أسطورة الإنسان المكتفي بذاته. فالعبد لا يخاف فقط من عدوه الخارجي، ولا من ظروفه الصعبة، ولا من قلة ذات يده، بل يخاف من نفسه إذا تُركت له؛ لأن النفس قد تضل وهي تظن أنها تهتدي، وقد تستغني وهي في غاية الفقر، وقد تتكبر وهي قائمةٌ بنعمة الله، وقد تتوهم أنها تقود الحياة وهي لا تملك نبضة قلبها. فالذكر هنا ليس زينةً روحية، بل حمايةٌ من الانهيار الداخلي حين تظن النفس أنها قادرةٌ بلا مددٍ من الله.

ومن لطائف الذكر أنه لا يضيف معنى جديدًا إلى القلب فقط، بل يطرد معاني فاسدة كانت تسكنه. فالقلب لا يبقى فارغًا؛ إن لم يعمره ذكر الله عمرته المخاوف، أو الشهوات، أو الأوهام، أو الناس، أو صور الدنيا المتراكمة. ولذلك كان الذكر تحريرًا للمساحة الداخلية من احتلال العالم لها. إن القلب إذا غفل صار كمدينةٍ مفتوحة لكل غازٍ: خبرٌ يربكه، وكلمةٌ تكسره، واحتمالٌ يخيفه، وخيالٌ ينهكه، ورغبةٌ تسوقه، وذكرى قديمةٌ تعيده إلى جراحه. فإذا دخل الذكر بدأ القلب يستعيد حراسته، كأن كلمة **الله أكبر** تقف على بوابة

النفس فتمنع الخوف أن يصير إلهًا نفسيًا، وكأن **الحمد لله** يطرد السخط الخفي، وكأن **سبحان الله** ينقّي التصور من ظنون الجاهلية بالله، وكأن **لا حول ولا قوة إلا بالله** تقطع حبال التوهم بأن الإنسان يحمل مصيره وحده.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ**﴾ النساء: ١٠٣

هذا الامتداد في أحوال الجسد يكشف امتدادًا أعمق في أحوال الروح. ليس الذكر عبادةً موسميةً لا تحضر إلا في حالٍ مخصوصة، بل هو صحبةٌ دائمةٌ للقلب في تقلباته. قائمًا حين تكون في قوة الحركة، وقاعدًا حين تكون في سكونٍ وراحة، وعلى جنبك حين تبلغ حال الضعف أو التعب أو المرض. كأن الآية تقول: لا توجد حالة إنسانية خارج إمكان الذكر. إنك تستطيع أن تذكر الله في قوة النهار، وفي تعب الليل، في ازدحام العمل، وفي سكون الوحدة، في العافية، وفي المرض، في أول الطريق، وفي آخر الطاقة.

وهذا الاتساع يجعل الذكر عبادةً شديدة الرحمة بالإنسان؛ لأنه لا يحتاج دائمًا إلى هيئةٍ كبرى، ولا إلى قدرةٍ جسديةٍ عالية، ولا إلى ظرفٍ مثالي. قد يكون الإنسان مريضًا، فيذكر الله. وقد يكون فقيرًا، فيذكر الله. وقد يكون مهمومًا، فيذكر الله. وقد يكون عاجزًا عن كثيرٍ من العمل، فلا يعجز عن أن يقول بقلبه ولسانه: يا رب. ومن هنا كان الذكر من أعظم أبواب القرب؛ لأنه يفتح للضعفاء بابًا لا يغلقه ضعفهم، ويفتح للمنكسرين طريقًا لا تمنعه كسورهم.

وفي الحديث القدسي الصحيح يقول الله عز وجل: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**».

هذا الحديث يشرح الآية شرحًا يملأ القلب هيبةً ورجاءً. فقوله: «**وأنا معه إذا ذكرني**» معيةٌ تليق بجلال الله، ليست كمعية المخلوق للمخلوق، بل هي معية علمٍ ونصرٍ وتأييدٍ ورحمةٍ وتوفيقٍ بحسب ما يليق بالله سبحانه. فالذاكر لا ينتج طمأنينته من داخله وحده، ولا يصنعها بخيالٍ نفسي، بل يستمدها من صلةٍ حقيقيةٍ بالله، ومن وعدٍ إلهيٍّ صادق، ومن قربٍ يليق بالرب الكريم من عبده الذاكر.

ثم تأمل قوله: «**فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**».

هنا ينقلب ميزان الشهرة كله. إن لحظةً صادقةً في الخفاء، لا يراها أحد، ولا يصفق لها أحد، ولا تدخل في ذاكرة الناس، قد تكون أعظم في حقيقتها من حضورٍ واسعٍ في الأرض؛ لأن المعيار ليس عدد الشاهدين من الخلق، بل صدق الصلة بالله. إن العبد قد يكون مجهولًا في الناس، معروفًا في موضع رحمة الله وفضله؛ وقد يكون صوته خافتًا في الأرض، مرفوع القدر عند الله؛ وقد يذكر الله في زاويةٍ لا يلتفت إليها أحد، فيكون ذلك الذكر فتحًا في قلبه، وسببًا لرحمةٍ لا يعلم مداها إلا الله.

ثم يقول: «**وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**».

أي شرفٍ يبقى بعد هذا؟

وأي خوفٍ من تراجع مكانة الإنسان بين الناس إذا كان طريق الرفعة الحقيقي يبدأ من صدق ذكره لله؟ إن العبد الذاكر لا يعود أسيرًا كاملًا لذاكرة البشر؛ لا يذوب إن نسوه، ولا ينتشي غرورًا إن ذكروه، ولا يجعل قيمته

النهائية معلقةً بألسنتهم. لقد وجد معيارًا أعلى: أن يكون موصولًا بالله، وأن يكون ذكره لربه سببًا لذكرٍ إلهيٍّ يليق بفضل الله وجلاله.

ولذلك كان الذكر علاجًا خفيًا لتضخم الأنا. فالإنسان الغافل يعيش غالبًا حول ذاته؛ يخاف عليها، يغضب لها، يخطط لها، يبالغ في حمايتها، يجرح العالم إذا جُرحت، ويضيق بالحق إذا خالف رغبتها. أما الذكر فيعيد الذات إلى حجمها الصحيح: عبدٌ لا رب، محتاجٌ لا مكتف، مملوكٌ لا مالكٌ مطلق، مسؤولٌ لا منفلت. فإذا قال العبد: **سبحان الله**، نزه ربه ونزع من نفسه أوهام التحكم. وإذا قال: **الحمد لله**، اعترف أن النعمة ليست من صنعه الخالص. وإذا قال: **الله أكبر**، أعلن أن ذاته ليست مركز الكون. وإذا قال: **أستغفر الله**، أقرّ بأن النقص فيه لا في حكم الله.

ومن هنا نفهم لماذا كان النبي ﷺ، وهو أكمل الناس عبوديةً، كثير الذكر والاستغفار. فقد صح عنه أنه قال: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

هذا الحديث يفتح بابًا عظيمًا في فهم الذكر: أن الذكر ليس عبادة المذنبين وحدهم، بل عبادة العارفين بالله قبل غيرهم. فكلما ارتفع العبد معرفةً بالله ازداد ذكرًا واستغفارًا، لا لأنه أبعد، بل لأنه أبصر بجلال من يعبد، وأبصر بفقر نفسه، وأشد حياءً من تقصيره في مقام العبودية.

إن الاستغفار هنا ليس مجرد طلب محو الذنب، بل تجديد دائم للوقوف في موضع العبد. فالإنسان قد يغفل عن فقره حتى في طاعته، وقد يتسلل إلى عمله عجبٌ خفي، وقد يرى لنفسه مقامًا، فإذا استغفر عاد إلى أرض العبودية:

يا رب، ما عبدناك حق عبادتك، وما ذكرناك حق ذكرك، وما شكرناك حق شكرك. وهذا المعنى يحفظ الذكر من أن يتحول إلى عادةٍ متكبرة، أو رصيدٍ نفسي يتباهى به الإنسان، فيبقى الذاكر منكسرًا لا مدعيًا، قريبًا لا مغرورًا، حاضر القلب لا مكتفيًا بصورة العمل.

ثم إن الذكر يعيد صياغة الذاكرة نفسها. فالذاكرة البشرية ليست مخزنًا محايدًا، بل هي قوة تصنع شعور الإنسان بالعالم. من امتلأت ذاكرته بالخذلان وحده رأى الحياة قاسية، ومن امتلأت ذاكرته بالإساءات وحدها ظن الناس كلهم أعداء، ومن امتلأت ذاكرته بالفقد وحده عاش كأنه محاصر بالموت، ومن امتلأت ذاكرته بالنجاحات وحدها قد ينتفخ غرورًا ويغفل عن فضل الله. أما الذكر فيعيد تربية الذاكرة؛ يعلّم الإنسان أن يتذكر النعمة مع الألم، واللطف مع البلاء، والستر مع الذنب، والفرج بعد الشدة، والهداية بعد الحيرة.

ولذلك تكرر في القرآن معنى تذكّر النعمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾
فاطر: ٣

ليس المقصود مجرد استحضار ذهني لنعمٍ متفرقة، بل بناء ذاكرة إيمانية مضادة لذاكرة السخط. فالإنسان إذا لم يذكر النعمة ابتلعته النقمة، وإذا لم يستحضر الفضل تضخم في عينه الحرمان، وإذا لم يرَ ما أعطي جعل كل وعيه أسيرًا لما مُنع. ومن هنا كان ذكر النعمة علاجًا للعمى الداخلي الذي يجعل الإنسان فقير الشعور ولو كان محاطًا بالعطايا.

فالذكر لا يقول للإنسان: لا تتألم. بل يقول له: لا تجعل الألم يسرق منك رؤية النعمة.
ولا يقول له: لا تحزن. بل يقول له: لا تجعل الحزن يحجب عنك رحمة الله.
ولا يقول له: لا تخف. بل يقول له: لا تجعل الخوف أكبر من الله في قلبك.

وهذا هو الفرق بين الوعظ السطحي والتربية القرآنية. الوعظ السطحي قد يأمر القلب أن يسكن دون أن يعيد له مركز السكون، أما القرآن فيرد القلب إلى الله، فإذا عاد إلى الله وجد السكينة من مصدرها. ولهذا لم يقل: ألا بالتحليل النفسي وحده تطمئن القلوب، ولا بالأسباب وحدها، ولا بالتجارب وحدها، مع أن لكل شيءٍ موضعه، بل قال: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾؛ لأن القلب خُلق بحيث لا يكتمل سكونه إلا بمن خلقه.

ومن أعظم ما يفعله الذكر أنه يطهّر التصور من سوء الظن بالله. فكثير من قلق الإنسان ليس من الحدث نفسه، بل من المعنى الذي يلصقه بالحدث. يبتلى فيظن أنه تُرك، ويتأخر عنه مطلوبه فيظن أنه حُرم، ويفقد شيئًا فيظن أن الرحمة غابت، ويضيق عليه الطريق فيظن أن الباب أغلق نهائيًا. فإذا ذكر الله، تذكّر أسماءه وصفاته: أنه رحيم، لطيف، حكيم، عليم، كريم، قريب من عباده بعلمه وإجابته ورحمته، لا يعجل لعجلة العبد، ولا يقدّر شيئًا عبثًا، ولا ينسى من دعاه.

وهنا يتحول الذكر إلى تصحيحٍ مستمر للعقيدة الشعورية، لا العقيدة النظرية فقط. فقد يقرّ الإنسان بلسانه أن الله رحيم، ثم يعيش شعوريًا كأن الرحمة بعيدة؛ ويقرّ أن الله حكيم، ثم يضطرب أمام كل غموض كأن الحكمة غائبة؛

ويقرّ أن الله رازق، ثم يرتجف أمام كل سببٍ كأن الرزق محصور فيه. فيأتي الذكر ليجعل العقيدة حيةً في الشعور، عاملةً في القلب، لا معلومةً محفوظةً في الذهن فقط.

ولهذا كان من أجمع الأذكار وأعظمها قول: **"لا إله إلا الله"**. إنها ليست كلمة توحيد تُقال ثم تبقى الحياة على وثنياتها النفسية الصغيرة. إنها تحرير كامل لمركز القلب. كلما قالها العبد بصدق، أعلن سقوط الآلهة الباطنة التي تنازع الله في قلبه: إله الخوف، وإله المال، وإله الناس، وإله المنصب، وإله الصورة، وإله الرغبة، وإله الذات. ومعنى ذلك لا أن العبد لا يحب، ولا يسعى، ولا يخاف الخوف الطبيعي، بل ألا تتحول هذه الأشياء إلى مراكز نهائية تحكم قلبه من دون الله.

وفي الحديث الصحيح: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله**». وفضلها ليس لأنها أطول الأذكار، بل لأنها أصلها؛ فهي تعيد الإنسان إلى حقيقة التوحيد التي منها تنبع كل طمأنينة صحيحة. فمن قالها بلسانه وقلبه، فقد أعلن أن العالم ليس فوضى، وأن الأسباب ليست أربابًا، وأن الناس لا يملكون المصير، وأن النفس ليست معبودة، وأن الأمر كله لله.

ثم يأتي قول: **الله أكبر** ليكون كأنه زلزالٌ لطيفٌ داخل النفس، يهدم ما تضخم فيها بغير حق. الله أكبر من حزنك، لا بمعنى أن حزنك تافه، بل بمعنى أنه ليس مطلقًا. الله أكبر من خوفك، لا بمعنى أن الخوف غير موجود، بل بمعنى أنه ليس سيد القلب. الله أكبر من الناس، لا بمعنى إلغاء أقدارهم، بل بمعنى

منعهم من احتلال مقام لا يليق إلا بالله. الله أكبر من الأزمة، لأن الأزمة زمنية، والله سبحانه هو الأول والآخر، الظاهر والباطن، بيده الأمر كله.

ولذلك حين تتكرر هذه الكلمة في الصلاة، وفي الأذان، وفي العيد، وفي المواطن الكبرى، فهي تربي المؤمن على ألا يسمح لشيءٍ محدود أن يصير مطلقًا في داخله. وكل قلقٍ في جوهره هو تضخيمٌ لشيء محدود حتى يبدو كأنه مطلق. يأتي الذكر فيعيده إلى حجمه.

أما **الحمد لله**، فهو تربيةٌ للعين الباطنة على رؤية الفضل. وليس الحمد مجرد شكرٍ عند حصول المرغوب، بل هو اعترافٌ بأن الله محمودٌ في كل حال، وأن حكمته أوسع من فهمنا، وأن رحمته لا تُقاس بلحظة ضيقٍ عابرة، وأن نعمه الظاهرة والباطنة أكثر من أن تحصى. ولذلك افتتح الله كتابه بـ ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾، كأن أول تربيةٍ يتلقاها المؤمن في الفاتحة أن يرى الوجود مفتتحًا بالحمد، لا بالاعتراض، ولا بالفراغ، ولا بالعبث.

والحمد يغيّر بنية الشعور؛ لأن الساخط لا يرى إلا ما نقص، والحامد يرى ما بقي، وما أُعطي، وما سُتر، وما صُرف عنه من البلاء وهو لا يعلم. إن الحمد لا يمنع الحزن، لكنه يمنع الحزن من أن يتحول إلى كفرانٍ شعوري شامل. والحمد لا يلغي الفقد، لكنه يمنع الفقد من أن يمحو ذاكرة النعمة. والحمد لا يجعل الإنسان غافلًا عن ألمه، لكنه يجعله أشرف من أن يختصر ربه وحياته في ألمه.

وأما **سبحان الله**، فهي تنزيهٌ لله عن كل نقص، ولكنها في الوقت نفسه تطهيرٌ لقلب العبد من التصورات الفاسدة. كم يحتاج الإنسان إلى التسبيح حين لا يفهم

ما يجري؟ لأنه قد يسيء الظن وهو لا يشعر، وقد يظن أن تأخر الإجابة إهمال، وأن شدة الابتلاء قسوة، وأن خفاء الحكمة غياب للحكمة. فإذا قال: سبحان الله، فكأنه يغسل تصوره من هذه الظنون، ويقول: يا رب، أنت منزه عن العبث، منزه عن الظلم، منزه عن الغفلة، منزه عن أن يجري في ملكك شيء خارج علمك وحكمتك.

ولهذا جاء التسبيح كثيرًا في القرآن عند المواطن التي تحتاج إلى تنزيه التصور. فالتسبيح ليس لفظًا جماليًا، بل حراسةٌ لعقيدة القلب من التلوث بالظنون. ومن أكثر الناس حاجةً إلى التسبيح من طال عليه البلاء، أو التبس عليه الطريق، أو رأى من الدنيا ما يهزّ الفؤاد؛ لأنه إن لم ينزّه ربه، أوشك أن يفسر أقدار الله بمقاييس جرحه، لا بنور إيمانه.

وأما **لا حول ولا قوة إلا بالله**، فهي كنزٌ من كنوز الجنة كما صح في الحديث. وسر كونها كنزًا أنها تكشف للإنسان حقيقة الطاقة: أنك لا تتحول من حالٍ إلى حال، ولا تنهض من ضعفٍ إلى قوة، ولا تخرج من ضيقٍ إلى سعة، ولا تثبت أمام فتنة، ولا تصبر على بلاء، ولا تؤدي طاعة، ولا تنجو من معصية، إلا بالله. هذه الكلمة لا تنتج الكسل، بل تمنع الغرور. لا تعطل السعي، بل تضع السعي في مقامه الصحيح. إنها تقول للإنسان: اعمل، لكن لا تعبد عملك؛ خذ بالأسباب، لكن لا تجعل الأسباب مصدر الطمأنينة النهائي؛ قاوم، لكن اعلم أن القوة ليست منك استقلالًا؛ وانهض، لكن لا تنسَ من أقامك.

بهذا المعنى يصبح الذكر بناءً معرفيًا وروحيًا كاملًا. كل ذكر يعالج عطبًا من أعطاب الداخل:

الله أكبر تعالج تضخم المخاوف.
الحمد لله يعالج عمى السخط.
سبحان الله يعالج فساد التصور.
أستغفر الله يعالج عجب النفس وغبار الذنب.
لا إله إلا الله تعالج عبودية القلب لغير الله.
لا حول ولا قوة إلا بالله تعالج وهم الاكتفاء الذاتي.

ولذلك لا يصح أن يُختصر الذكر في كونه تكرارًا عدديًا فحسب، مع مشروعية العدد حيث ورد؛ لأن العدد يحفظ النظام، لكن الروح هي المقصود الأعظم. قد يعدّ الإنسان كثيرًا وقلبه غافل، وقد يقول قليلًا بصدقٍ فينفتح له من المعنى ما لا ينفتح لغيره. والكمال أن يجتمع اللسان والقلب، وأن يتربى القلب بالمداومة، وأن يصير الورد اليومي ليس واجبًا ثقيلًا، بل موعدًا لإعادة الإنسان إلى نفسه وربه.

وفي هذا المعنى يظهر سر قوله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**».
هذا الحديث لا يصف فرقًا سلوكيًا بسيطًا، بل يضع الذكر في مقام الحياة نفسها. فالحي هنا ليس من يتحرك جسده فقط، بل من يتحرك قلبه بالله.
والميت ليس من توقفت أنفاسه فقط، بل من انقطع قلبه عن ذكر ربه حتى صار يمشي في الدنيا بلا نورٍ داخلي. قد يكون الإنسان في قمة نشاطه الخارجي، لكنه ميت المعنى إذا خلا قلبه من ذكر الله؛ وقد يكون ضعيف الجسد، قليل الحيلة، لكنه حيٌّ حياةً عظيمةً إذا كان قلبه ذاكرًا.

وهذا الحديث يكشف أن الذكر ليس تحسينًا لحياة موجودة فحسب، بل هو حياة القلب نفسها. فالإنسان بلا ذكر يتنفس، لكنه لا يطمئن؛ يعمل، لكنه لا يستقر؛ ينجح، لكنه لا يشبع؛ يملك، لكنه لا يأمن؛ يضحك، لكن وحشةً ما تبقى في قاعه. لأن القلب لا يحييه مجرد الامتلاك، بل الصلة. ولا يسكّنه مجرد الانتصار، بل الرجوع. ولا يملؤه مجرد الناس، بل ذكر الله.

ومن هنا يكون الذكر ترياقًا وجوديًا؛ لأنه لا يعالج عرضًا واحدًا، بل يعالج أصل المرض: الغفلة. والغفلة ليست نسيان معلومة دينية، بل حالة انفصال عن الحقيقة. الغافل قد يعرف أن الله حق، لكنه لا يعيش كأن هذا الحق حاضر. يعرف أن الدنيا فانية، لكنه يتعامل معها كأنها باقية. يعرف أن الرزق على الله، لكنه يذوب أمام الأسباب. يعرف أن الموت آتٍ، لكنه يؤجل اليقظة. يعرف أن الله يسمع ويرى، لكنه يستسلم لظلام السريرة. فالذكر يحول المعرفة من معلومة إلى حضور، ومن عقيدة محفوظة إلى نور عامل في القلب.

وهذا هو معنى الهندسة الداخلية للذكر: أنه يعيد ترتيب المسافات داخل الإنسان. يجعل الله في موضع التعظيم الأعلى، والدنيا في موضعها العابر، والناس في أقدارهم المحدودة، والألم في حجمه الممكن، والذات في مقام العبودية، والمستقبل في يد الله، والماضي في باب العبرة والاستغفار، والحاضر في ميدان العمل والرجاء.

فإذا اختل هذا الترتيب، اختل القلب. وإذا عاد الذكر، عاد البناء.

ولذلك فإن الكتيّب كله يمكن أن يدور حول هذه الحقيقة:

الذكر لا يضيف إلى الإنسان كلماتٍ فقط، بل يعيد بناء الإنسان حول مركزه الإلهي الصحيح.

ومن عرف هذا لم يعد ينظر إلى الأذكار على أنها هامش اليوم، بل على أنها عموده الخفي. فكما يحتاج الجسد إلى طعامٍ يتكرر، ويحتاج النفس إلى نومٍ يتكرر، يحتاج القلب إلى ذكرٍ يتكرر؛ لا لأن الله محتاجٌ إلى ذكر العبد، تعالى الله عن ذلك، بل لأن العبد هو المحتاج إلى أن يبقى موصولًا، يقظًا، متخففًا من وحشة العالم وثقل نفسه.

إن الإنسان يخرج إلى الحياة كل يوم، فيتلوث قلبه بشيءٍ من غبارها: خبرٌ يقلقه، وجهٌ يجرحه، رغبةٌ تجذبه، ذنبٌ يثقله، خوفٌ يطارده، مقارنةٌ تسممه، ذكرى تكسره. فإذا لم يكن له وردٌ من الذكر يغسل به هذا الغبار، تراكمت عليه الأشياء حتى يفقد صفاءه الداخلي. ومن رحمة الله أن جعل الذكر قريبًا؛ لا يحتاج إلى سفر، ولا إلى مال، ولا إلى قوة، ولا إلى جاه، بل إلى قلبٍ يرجع ولسانٍ يصدق.

ولهذا يكون الذاكر في أضعف حالاته أقوى من الغافل في أقوى حالاته؛ لأن قوة الغافل مستعارة من أسبابٍ تزول، أما قوة الذاكر فمتصلة بالثقة بالله. والغافل إذا انكسرت أسبابه انكسر معها، أما الذاكر فإذا انكسرت أسبابه بقي له باب الله مفتوحًا. والغافل إذا نسيه الناس شعر أنه انتهى، أما الذاكر فيعلم أن الشرف الأعظم ليس في ذاكرة الناس، بل في ذكر الله وفضله ورحمته.

ومن هنا نفهم لماذا كان الذكر ملازمًا للأنبياء والصالحين في أشد المواطن. فحين ابتلع الحوت يونس عليه السلام، لم يكن معه جيش، ولا سبب ظاهر، ولا أرض يقف عليها، ولا أفق يراه، ولكنه كان معه ذكرٌ اخترق ظلمات البحر والبطن والليل:

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾
الأنبياء: ٨٧

ما أعظم هذا الذكر. بدأ بالتوحيد: **لا إله إلا أنت،** ثم بالتنزيه: **سبحانك،** ثم بالاعتراف: **إني كنت من الظالمين**. هذه ليست جملة نجاة فقط، بل ترتيب كامل للرجوع: توحيدٌ يقطع التعلق بغير الله، وتنزيهٌ يصون القلب من سوء الظن، واعترافٌ يعيد العبد إلى موضعه. ولذلك جاء الجواب:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء: ٨٨

ولفظ **الغَمّ** هنا بالغ الدلالة؛ لأنه ليس مجرد خطر خارجي، بل ضيق داخلي خانق. فكأن الذكر لم ينجّه من بطن الحوت فقط، بل نجّاه من الغم. وهذا شأن الذكر؛ قد يبدأ خلاصه من الداخل قبل أن يظهر أثره في الخارج. قد لا يخرجك فورًا من بطن المحنة، لكنه يخرج اليأس من قلبك داخل المحنة. وقد لا يغير المكان مباشرة، لكنه يغير مقامك في المكان. وقد تبقى الظلمات حولك، لكن في داخلك مصباح التوحيد والتنزيه والاعتراف.

وهذه من أجلّ حقائق الذكر: أنه يصنع نجاةً داخل النجاة، وفرجًا قبل الفرج، وسعةً في قلب الضيق.

وبهذا ندرك أن الذكر ليس لفظًا عابرًا. إنه بناء، وتطهير، وتحرير، وتصحيح، وإحياء. إنه عودة القلب إلى الله في كل مرة يحاول العالم أن يخطفه. وهو ليس بديلاً عن العمل، بل هو الروح التي تمنع العمل من أن يصير غرورًا أو يأسًا. وليس بديلاً عن التفكير، بل هو النور الذي يمنع التفكير من أن يدور في ظلام القلق. وليس بديلاً عن مواجهة الحياة، بل هو القوة التي تمنح المواجهة معناها واتزانها.

فالذاكر لا ينسحب من العالم؛ إنه يسترد قلبه من العالم، ثم يعود إلى العالم بقلبٍ أعرف بالله، وأقدر على الصبر، وأصفى في الرؤية، وأعمق في الثقة، وأشد تحررًا من الأصنام الخفية.

وهذا هو سر الطمأنينة:
أن يظل العالم متحركًا حولك، لكن قلبك لا يفقد قبلته.
أن تأتيك المخاوف، لكنها لا تجد العرش الداخلي فارغًا فتجلس عليه.
أن تضيق بك الأسباب، لكن لا يضيق بك معنى الرجاء.
أن تُنسى في الأرض، لكن لا تنسى أن باب الله لا يغلق.
أن تتكسر فيك أشياء كثيرة، لكن يبقى فيك ذكر الله يعيد تركيبك من جديد.

فالذكر في جوهره ليس تكرار كلمات، بل عودة الروح إلى مصدر معناها، وعودة القلب إلى موضع عبوديته، وعودة الإنسان من فوضى الخارج إلى نور الصلة بالله.

الفَصْلُ الثَّالِث

مِنَ التَّشَتُّتِ إِلَى المَرْكَز: الذِّكْرُ وَتَوْحِيدُ وِجْهَةِ الوَعْي

من أعظم ما يصيب الإنسان في هذا العصر أن وعيه لم يعد ساكنًا في موضعه، بل صار موزعًا بين ألف جهة؛ تسحبه الأخبار، وتستفزه الصور، وتلاحقه المخاوف، وتستهلكه المقارنات، وتنهكه الهموم الصغيرة قبل الكبيرة، حتى يغدو القلب كأنه ساحة مفتوحة لكل عابر، لا يملك بابًا يغلقه، ولا مركزًا يعود إليه، ولا ميزانًا يزن به ما يدخل وما يخرج. وهذه ليست مشكلة نفسية عارضة فحسب، بل هي صورة من صور الغفلة حين تفقد النفس قبلتها الداخلية، فتبدأ الأشياء كلها تتضخم في الوعي لأنها لم تعد مرتبة حول المعنى الأعلى.

والذكر يأتي في القرآن ليعالج هذا التشتت من جذره؛ لا بأن يلغي التفاصيل، ولا بأن يعزل الإنسان عن شؤون الحياة، بل بأن يردّ التفاصيل كلها إلى مركزها، ويعيد ترتيبها في ضوء الحقيقة الكبرى: أن الله هو الأول والآخر، وأن الأمر كله إليه، وأن القلب لا يستقيم إذا صار لكل حادثٍ فيه عرش، ولكل خوفٍ فيه سلطان، ولكل رغبةٍ فيه محراب.

ولهذا يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

الحشر: ١٩

هذه الآية من أعمق الآيات في تشريح العلاقة بين نسيان الله وفقدان الإنسان لنفسه. فالقرآن لا يقول: نسوا الله فنسوا بعض مصالحهم، أو ضاعت منهم بعض التفاصيل، بل يقول: ﴿**فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾؛ أي إن نسيان الله ينتهي بالإنسان إلى فقدان أعظم معرفة بعد معرفة الله: معرفة حقيقة نفسه، وموقعه، ووظيفته، ومصيره، وحدوده، وحاجته، وما يصلحه وما يفسده.

فالإنسان حين ينسى الله لا يصبح حياديًا، ولا يبقى كما هو، بل يدخل في انقلاب داخلي خطير؛ لأن النفس لا تستطيع أن تعيش بلا مركز. فإذا لم يكن الله هو مركز الوعي، جاءت المراكز الزائفة: المال، الشهرة، الخوف، اللذة، الناس، السلطة، الصورة، الماضي، المستقبل، الجرح، الرغبة، الانتقام. وكل مركز من هذه المراكز إذا احتل القلب أعاد تعريف الإنسان على صورته؛ فمن جعل المال مركزه صار يرى نفسه بقدر ما يملك، ومن جعل الناس مركزه صار يتبدل مع مدحهم وذمهم، ومن جعل الخوف مركزه صار يعيش في المستقبل قبل أن يأتي، ومن جعل الجرح مركزه صار يفسر العالم كله من موضع النزيف.

وهنا تظهر عظمة الذكر؛ لأنه ليس مجرد استحضارٍ لفظيٍّ لاسم الله، بل هو إعادة الله إلى مركز الوعي الإنساني تعظيمًا ومحبةً وخضوعًا ورجاءً وخوفًا، لا بمعنى أن الله يغيب ثم يحضر، تعالى الله عن ذلك، فهو العليم المحيط، ولكن بمعنى أن قلب العبد هو الذي يغفل ثم يعود، ويتشتت ثم يجتمع، ويضيع في الأطراف ثم يرجع إلى الأصل.

إن الذكر هو مقاومة النسيان الأكبر؛ نسيان الله الذي يجر وراءه نسيان النفس.

ولذلك فإن الذاكر لا يستعيد علاقته بالله فقط، بل يستعيد نفسه أيضًا؛ لأنه حين يقول: **لا إله إلا الله**، يعرف أنه ليس عبدًا للناس، ولا للمال، ولا للخوف، ولا للهوى. وحين يقول: **الله أكبر**، يعرف أن أزمته ليست أكبر من ربه، وأن الذين يخافهم ليسوا أكبر من خالقهم، وأن المستقبل ليس أكبر من تدبير الله. وحين يقول: **الحمد لله**، يعرف أن حياته ليست سلسلة حرمان، بل نسيج نعمٍ ظاهرة وباطنة، حتى وإن تخللتها ابتلاءات موجعة. وحين يقول: **أستغفر الله**، يعرف أنه ليس إلهًا صغيرًا لا يخطئ، بل عبدٌ يحتاج إلى رجوع دائم.

فالذكر يعيد للإنسان تعريفه الصحيح:
أنا عبد، إذن لست مطلقًا.
أنا مخلوق، إذن لست مالكًا لنفسي استقلالًا.
أنا مفتقر، إذن لا أستغني عن الله لحظة.
أنا مبتلى، إذن لا أفسر الألم بوصفه عبثًا.
أنا راجع إلى الله، إذن لا أعيش كأن الدنيا هي النهاية.

وهذه المعاني ليست أفكارًا نظرية، بل هي هندسة داخلية للوعي. فكلما تكرر الذكر بصدق، عاد القلب إلى ترتيبه الصحيح، وكلما طال الغفول، عادت الفوضى إلى الداخل. ولهذا لم يكن الذكر في القرآن حالةً طارئةً، بل عبادةً ممتدةً تصاحب الإنسان في اختلاف أحواله، كما قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾ آل عمران: ١٩١

تأمل هذا الاقتران البديع بين الذكر والتفكر. لم يقل: يذكرون الله فقط، ولم يقل: يتفكرون فقط، بل جمع بينهما؛ لأن الذكر بلا تفكر قد يضعف أثره في الوعي، والتفكر بلا ذكر قد يتحول إلى تأملٍ باردٍ لا يبلغ مقام العبودية. أما حين يجتمع الذكر والتفكر، فإن القلب لا يرى الكون مادةً صامتة، بل آيةً ناطقة؛ ولا يرى السماء اتساعًا هندسيًا فقط، بل شاهدًا على الحكمة؛ ولا يرى الأرض مجالًا للعيش فحسب، بل موضع ابتلاءٍ ومعرفةٍ ورجوع.

ثم تأمل نتيجة هذا الذكر المتفكر: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا**﴾. هنا يصل الوعي إلى مركزه: نفي العبث. فالإنسان المتشتت قد يرى العالم مبعثرًا، والألم بلا معنى، والحوادث بلا حكمة، والحياة بلا وجهة، فإذا ذكر وتفكر، أدرك أن الخلق ليس باطلًا، وأن الوجود ليس فوضى، وأن حياته ليست حادثًا مرميًا في الزمن، بل هي داخلة في علم الله وحكمته وأمره.

ثم يأتي التسبيح: ﴿**سُبْحَٰنَكَ**﴾.

كأن القلب بعد أن نظر في الخلق، وفهم أن الوجود ليس باطلًا، احتاج أن ينزه الله عن كل ظنٍّ فاسدٍ قد يتسلل من مشاهدة الألم أو الغموض أو الموت. فالتسبيح هنا ليس خاتمةً لفظيةً، بل حمايةٌ للتفكر من الانحراف، وصيانةٌ للقلب من أن يرى ما لا يفهمه فيظن بربه ما لا يليق بجلاله.

ثم يأتي الدعاء: ﴿**فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾.

وهذا عجيب؛ لأن التفكر في السماوات والأرض لم ينتهِ عند معلومة كونية، بل انتهى عند خشية ومصير. هذه هي المعرفة القرآنية: تبدأ من السماء،

وتمر بالقلب، وتنتهي بالآخرة. أما المعرفة إذا انفصلت عن الذكر فقد تزيد الإنسان معلوماتٍ ولا تزيده هدى، وتمنحه دهشةً جماليةً ولا تمنحه نجاة.

ومن هنا نعلم أن الذكر لا يوحد الوعي فحسب، بل يمنعه من الانقسام بين المعرفة والعبودية. إن الإنسان الحديث قد يعرف كثيرًا ولا يسجد، وقد يحلل كثيرًا ولا يطمئن، وقد يملك أدوات إدراك واسعة لكنه يظل ضائع المركز. أما الذاكر، فإنه يتعلم أن كل معرفة لا تعيده إلى الله تبقى ناقصة، وأن كل تفكر لا يثمر تعظيمًا وخشيةً ورجاءً قد يتحول إلى زيادة في الحيرة.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا**﴾ المزمل: ٨-٩

في هاتين الآيتين بناءٌ كامل لمسار القلب: ذكر، ثم تبتل، ثم توحيد، ثم توكل.
﴿**وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ**﴾: بداية الاتصال.
﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾: تجريد القلب من التعلق المبعثر، لا ترك الدنيا بمعنى تعطيل العمل، بل قطع العبودية الداخلية لما سوى الله.
﴿**رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ**﴾: توسيع النظر؛ فالذي تذكره ليس معنى خاصًا في زاوية النفس، بل رب المشرق والمغرب، رب الجهات كلها، ورب حركة النور والظلام، ورب الأزمنة والأمكنة.
﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾: تثبيت المركز الأعلى.
﴿**فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا**﴾: ثمرة ذلك كله؛ التوكل.

فكأن الآية تقول: لا يستطيع القلب أن يتوكل حقًا حتى يذكر، ولا يذكر حقًا حتى يتبتل، ولا يتبتل حقًا حتى يعرف من هو ربه، ولا يعرف حقيقة الربوبية

حتى يسقط من قلبه سلطان الآلهة الزائفة. ومن هنا كان التوكل ثمرة توحيد الوعي. فالذي يتوزع قلبه بين المخلوقات لا يتوكل، بل يفاوض قلقه. أما الذي اجتمع قلبه على الله، فإنه يأخذ بالأسباب، لكن قلبه لا يسجد لها؛ يسعى، لكن لا يعبد سعيه؛ ينتظر، لكن لا يذوب في الانتظار؛ يخاف الخوف الطبيعي، لكن لا يمنح الخوف حق السيادة.

وهذا هو الفرق بين الذكر اللساني وحده والذكر الذي يعيد تشكيل الوعي. قد يقول الإنسان: توكلت على الله، ثم يبقى قلبه مشدودًا إلى السبب كأنه مصدر النجاة المطلق. وقد يقول: الله أكبر، ثم يبقى الحدث أكبر من الله في شعوره، لا في عقيدته المعلنة. وقد يقول: الحمد لله، ثم ينظر إلى حياته كلها بعين السخط. فالذكر الحقيقي ليس أن تمر الكلمة على اللسان فقط، بل أن تنزل من اللسان إلى موضع الحكم في القلب، فتغيّر ترتيب الأشياء داخله.

ومن أعظم ما يعين على ذلك أن يفهم الإنسان أن الذكر ليس منفصلًا عن الصلاة، بل الصلاة هي البناء الأعظم للذكر. قال الله تعالى:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ طه: ١٤

هذه الآية تجعل الذكر في قلب الصلاة: **﴿لِذِكْرِيٓ﴾**. فالصلاة ليست حركاتٍ منفصلةً عن الوعي، ولا ألفاظًا تجري على اللسان بينما القلب في الأسواق والهموم، بل هي موعدٌ دوريٌّ لإعادة الإنسان إلى مركزه. خمس مرات في اليوم يناديه الوحي العملي: قف. أعد ترتيب نفسك. اغسل وعيك من غبار التشتت. كبّر ربك حتى يصغر ما كبر عليك. اقرأ كلامه حتى لا تبقى أسير

كلام الناس. اركع لتتذكر أنك لست سيد نفسك. اسجد لتبلغ أعلى مقاماتك حين تضع أشرف ما فيك على الأرض لله.

ومن العجيب أن الصلاة تبدأ بالتكبير؛ لأن أول ما يحتاجه القلب المتشتت أن يعرف من الأكبر. فإذا دخل في الصلاة وقال: **الله أكبر**، فهو لا يفتتح عبادةً فقط، بل يعلن انقلابًا في ميزان الداخل: ليس العمل أكبر، ولا الخوف أكبر، ولا الرزق أكبر، ولا الخصوم أكبر، ولا الجرح أكبر، ولا الانتظار أكبر؛ الله أكبر. وكل صلاةٍ لا تعيد هذا المعنى إلى القلب فقد فات صاحبها من روحها بقدر غفلته.

ثم تتكرر الفاتحة في كل ركعة، وفيها جوهر إعادة بناء الوعي:

﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾: يبدأ القلب بالحمد لا بالشكوى، وبربوبية الله لا بفوضى العالم.

﴿**ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾: يتذكر أن أصل الصلة رحمة، فلا يقرأ الأحداث بعين القنوط.

﴿**مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ**﴾: يرى الدنيا مرتبطة بالآخرة، فلا ينخدع بنهاياتٍ مؤقتة.

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: يحدد المركز والاعتماد؛ العبادة لك، والاستعانة بك.

﴿**ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ**﴾: يعترف أن أعظم حاجته ليست المال ولا السلامة فقط، بل الهداية.

هذه الفاتحة ليست مقدمة صلاة فحسب؛ إنها هندسة يومية للوعي. ولو فهمها القلب لأدرك أن الصلاة المتكررة ليست تكرارًا ميكانيكيًا، بل رحمة؛ لأن

الإنسان يتشتت كلما خرج إلى الدنيا، فيرده الله إلى الفاتحة، إلى الحمد، إلى الرحمة، إلى الآخرة، إلى العبودية، إلى الاستعانة، إلى الهداية.

وفي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟**» **قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»**.

وهذا الحديث، وإن كان في محو الخطايا، يحمل أيضًا معنى بالغًا في تطهير الداخل. فالإنسان يتعرض كل يوم لدرنٍ ظاهر ودرنٍ باطن: ذنب، غفلة، كبر، ضيق، حسد، خوف، تعلق، قسوة، سوء ظن، شهوة، انكسار. والصلاة، بما هي ذكرٌ جامع، نهرٌ متجدد على باب القلب. ليست حدثًا معزولًا، بل غسلٌ متكرر للروح من غبار السير في الدنيا.

غير أن هذا الغسل لا يبلغ أثره الأعمق إذا وقف الإنسان على ضفة الصلاة ولم يدخلها بقلبه. ولذلك جاء التحذير القرآني من صلاةٍ فقدت روح الذكر:

﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ الماعون: ٤-٥

لم يقل: الذين لا يصلون، بل قال: **للمصلين** الذين هم عن صلاتهم ساهون. وهذا يفتح بابًا مهيبًا: قد يؤدي الجسد صورة العبادة، ويبقى القلب خارجها. وقد ينطق اللسان بالذكر، ويبقى الوعي ساهيًا عن المذكور. ومن هنا كان الخطر ليس في ترك الذكر وحده، بل في أن يتحول الذكر نفسه إلى عادةٍ فارغة لا تعيد الإنسان إلى الله.

فالذكر الذي يوحد الوعي يحتاج إلى حضور، ولو على قدر الطاقة. وليس المطلوب أن يبلغ العبد في كل لحظة كمال الخشوع؛ فهذا مقام عزيز، والنفس تتقلب، ولكن المطلوب أن يقاوم الغفلة، وأن يعود كلما شرد، وأن لا يرضى بتحويل الذكر إلى صوتٍ بلا قلب. فكل رجوعٍ داخل الذكر ذكرٌ آخر، وكل مقاومةٍ للشرود عبادة، وكل انتباهٍ بعد غفلة فتحٌ صغير من الله.

ومن هنا نفهم سر كثرة الأمر بالذكر في القرآن، لا بوصفه تكرارًا للأمر نفسه، بل بوصفه حاجةً متجددةً للإنسان: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ الأحزاب: ٤١-٤٢

﴿**ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾؛ لأن التشتت كثير، والمداخل على القلب كثيرة، والغفلات كثيرة، وموجات الخوف والرغبة لا تنقطع. فلا يكفي القلب ذكرٌ قليلٌ عابر في مواجهة عالمٍ شديد القدرة على الاختطاف. إن الكثرة هنا ليست عبثًا، بل رحمة؛ لأن القلب يحتاج إلى جرعات متكررة من اليقظة حتى لا تستولي عليه الغفلة. وكأن الذكر الكثير هو بناء مناعة داخلية؛ كلما تكرر، اشتدت قدرة القلب على مقاومة احتلال العالم.

ثم قال: ﴿**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾.
البكرة والأصيل طرفا اليوم، وكأن الوحي يربّي المؤمن على أن يبدأ نهاره وينهيه بالتنزيه. يبدأه بالتسبيح حتى لا يدخل اليوم بتصورٍ فاسدٍ عن الله، وينهيه بالتسبيح حتى لا ينام وقلبه مثقلٌ بظنونٍ أو غبارٍ أو اعتراضٍ خفي. وما بين الطرفين تمتد الحياة، لكن القلب إذا حُفظت بدايته ونهايته بالذكر، كان أقرب إلى الاستقامة في وسطه.

وفي آياتٍ أخرى يقول الله تعالى: ﴿**وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ**﴾ الأعراف: ٢٠٥

هذه الآية ترسم أدب الذكر الداخلي: **في نفسك، تضرعًا، وخيفةً، ودون الجهر من القول**. إنها لا تلغي الذكر الجاهر حيث شُرع أو احتيج إليه، لكنها تكشف مقامًا عظيمًا: أن للذكر سريرةً لا يطلع عليها الناس، وأن القلب يحتاج إلى لحظاتٍ يذكر فيها ربه بعيدًا عن الأداء الاجتماعي، وعن لفت الأنظار، وعن صوت الجماعة. الذكر في النفس هو موضع الصدق الخالص، حيث لا جمهور، ولا تصفيق، ولا صورة، ولا شاهد من الخلق؛ هناك يظهر العبد كما هو: فقيرًا بين يدي ربه.

ثم تختم الآية: ﴿**وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ**﴾.
كأن الغفلة ليست مجرد ترك فعل، بل انتماءٌ إلى فئةٍ خطيرة؛ فئة الذين انقطعت قلوبهم عن الذكر حتى صار النسيان وصفًا لهم. والقرآن لا يريد للمؤمن أن يكون من أهل الغفلة، ولو كان كثير الحركة، كثير الكلام، كثير الاشتغال. فالاشتغال لا يساوي اليقظة، وكثرة المعلومات لا تساوي الذكر، وحضور الإنسان في العالم لا يعني حضوره مع الله.

إن من أخطر أوهام الإنسان أن يظن نفسه يقظًا لأنه مشغول. قد يكون مشغولًا جدًا، لكنه غافل جدًا. وقد يكون صامتًا قليل الحركة، لكنه ذاكر حاضر القلب. اليقظة في القرآن ليست كثرة الانتباه للأحداث، بل حضور القلب مع الله وسط الأحداث. ومن هنا كان الذكر نقلًا للإنسان من يقظة سطحية إلى يقظة

وجودية؛ من متابعة ما يحدث حوله فقط، إلى فهم من بيده الأمر فوق كل ما يحدث.

ومن اللطيف أن القرآن يربط الذكر أحيانًا بمواطن الشدة العملية، لا بالخلوات وحدها. قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ الأنفال: ٤٥

هذه آية مدهشة؛ لأن موطن اللقاء موطن اضطرابٍ وخوفٍ وارتباكٍ واستنفارٍ للأسباب، ومع ذلك يأمرهم الله بالذكر الكثير. لماذا؟ لأن الشدة إذا حضرت، حاولت أن تملأ الوعي كله؛ يصبح العدو أكبر من كل شيء، والخطر أكبر من كل شيء، واحتمال الهزيمة أكبر من كل شيء. فيأتي الذكر ليمنع المعركة الخارجية من أن تتحول إلى هزيمة داخلية. يأمرهم بالثبات، ثم بالذكر؛ لأن الثبات ليس عضلاتٍ وسلاحًا فقط، بل قلبٌ يعرف ربه في لحظة الزلزلة.

وهذه الآية تصلح قانونًا في كل مواجهة، لا في ساحة القتال وحدها. إذا لقيت خوفًا، فاثبت واذكر الله كثيرًا. إذا لقيت مرضًا، فاثبت واذكر الله كثيرًا. إذا لقيت خصومةً أو فقرًا أو فقدًا أو تهديدًا أو اضطرابًا، فاثبت واذكر الله كثيرًا. ليس الذكر بديلًا عن إعداد السبب، لكنه يمنع السبب من أن يبتلع قلبك، ويمنع الخوف من أن يطرد اليقين من داخلك.

ومن هنا نرى أن الذكر يصنع توازنًا عظيمًا بين العمل والاعتماد، بين السبب والتوكل، بين الحركة والسكون. فالذاكر لا يفرّ من الحياة، لكنه لا يدخلها بقلبٍ عارٍ من الله. ولا يترك التخطيط، لكنه لا يعبد الخطة. ولا يستعمل العقل، لكنه لا يجعل العقل إلهًا يحيط بكل شيء. إنه يعرف أن له وظيفةً، وأن لله

تدبيرًا؛ وأن عليه أن يسعى، وأن النتائج بيد الله؛ وأنه مأمور بالعمل، لا بادعاء السيطرة الكاملة على المصير.

وهذا التوازن هو جوهر توحيد وجهة الوعي.
فالغافل إما أن يترك الأسباب بدعوى التوكل، أو يعبد الأسباب بدعوى الواقعية. أما الذاكر فيأخذ بالأسباب وهو يعلم أنها لا تعمل استقلالًا عن مشيئة الله، ويتوكل على الله وهو يعلم أن التوكل لا يعني الكسل. الذكر هنا ليس صوتًا في الخلفية، بل ميزانٌ يحفظ الإنسان من طرفين: طرف الغرور العملي، وطرف العجز المتواكل.

ومن أدق ما يفعله الذكر أنه يقلل من ضجيج الأشياء دون أن ينكر وجودها. فحين يكثر ذكر الله في القلب، لا تختفي المشكلات بالضرورة، لكنها تفقد قدرتها على احتلال الوعي كله. تبقى المشكلة مشكلة، لكنها لا تصير ربًا. يبقى الخوف خوفًا، لكنه لا يصير قدرًا مطلقًا. يبقى الناس ناسًا، لكنهم لا يصيرون مصدر القيمة النهائية. تبقى الدنيا دنيا، لكنها لا تصير آخرة القلب.

وهنا يخرج الإنسان من عبودية التشتت.

إن التشتت ليس كثرة المهام فقط، بل كثرة الأرباب النفسية. كل شيءٍ يستولي على قلبك حتى يحدد قيمتك ومصيرك وطمأنينتك صار ربًا نفسيًا صغيرًا، وإن لم تسمّه كذلك. والذكر، في عمقه التوحيدي، لا يقبل أن يبقى القلب موزعًا بين هذه الأرباب. إنه يعيد إعلان الحقيقة الكبرى: **لا إله إلا الله**. لا معبود بحق إلا الله، ولا مركز نهائي للقلب إلا الله، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

ولذلك كان الذكر العظيم في الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم**».

هذا الذكر النبوي في الكرب لا يذكر المشكلة أصلًا، ولا يصف حجم الأزمة، بل يردّ القلب إلى التوحيد والربوبية والعظمة والحلم. كأن علاج الكرب يبدأ من نقل الوعي من ضيق الحدث إلى سعة الربوبية. أنت في الكرب ترى الجدار قريبًا جدًا، والذكر يرفع بصرك إلى رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم. أنت ترى العجلة في قلبك، والذكر يذكرك بالعظيم الحليم. أنت ترى انسداد الأسباب، والذكر يردك إلى لا إله إلا الله.

هذه هندسة دقيقة للوعي في لحظة الضغط: لا تبدأ من الأزمة، بل من الله. لا تجعل الحدث هو مركز التأمل، بل اجعل رب الحدث هو المركز. حينئذ لا تنكر الأزمة، لكنك تمنعها من أن تكون مطلقة. وهذا هو أصل السكينة.

ومن هنا يظهر خطأ من يظن الذكر مجرد تطييب نفسي عابر. الذكر ليس جملة تهدئة، بل إعادة تأسيس لرؤية الوجود. إنه يقول للقلب: أنت لا تعيش في كونٍ أعمى، ولا في مصيرٍ منفلت، ولا في صراعٍ مستقل عن علم الله. أنت في ملك الله، وتحت علم الله، وداخل ابتلاءٍ يراه الله، ومحمولٌ بفضل الله إن صدقت في الرجوع إليه.

وهذا المعنى هو الذي يجعل الذكر قادرًا على توحيد الوعي؛ لأن الوعي لا يجتمع إلا حول معنى أعلى من تفاصيله. أما إذا كان المعنى الأعلى غائبًا، صارت التفاصيل ملوكًا متنازعة. كل تفصيل يطلب قلبك. كل خبر يريد أن

يسكنك. كل خوف يريد أن يعرّفك. كل خسارة تريد أن تبتلع ذاكرتك. كل رغبة تريد أن تقودك. فلا يجمع هذا الشتات إلا ذكر الله.

ولهذا يمكن أن نقول: الذكر هو فنُّ إعادة الأشياء إلى أحجامها.
والغفلة هي مأساة تضخيم الأشياء حتى تطغى على القلب.

إذا ذكر العبد ربه، عاد العالم إلى حجمه: كبيرٌ في الامتحان، صغيرٌ أمام الله.
وعاد الإنسان إلى حجمه: مكرمٌ بالعبودية، فقيرٌ إلى الله.
وعاد الألم إلى حجمه: موجعٌ لكنه ليس أبديًا.
وعاد الناس إلى حجمهم: أسبابٌ لا أرباب.
وعاد المستقبل إلى حجمه: غيبٌ لا يملكه إلا الله.
وعاد الماضي إلى حجمه: موضع عبرةٍ واستغفار، لا سجنٌ أبدي.

ومن هنا تبدأ الطمأنينة لا لأنها أُعطيت كل ما تريد، بل لأنها عرفت أين تضع كل شيء.

ولعل من أعمق صور هذا المعنى ما يظهر في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ البقرة: ٢٠٠

هذه الآية جاءت بعد المناسك، في موطنٍ قد يتجه فيه الناس إلى المفاخر، والأنساب، وذاكرة الجماعة، والحديث عن الآباء والأمجاد. فجاء الأمر: ﴿**فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾. إنها لا تلغي الذاكرة الاجتماعية، لكنها تعيد ترتيبها. لا تجعلوا الآباء والأمجاد والأنساب هي مركز الوعي بعد

العبادة، بل اجعلوا ذكر الله أشد حضورًا. لأن الإنسان قد يخرج من العبادة ثم يعود سريعًا إلى مركزه القديم: القبيلة، الاسم، الذات، التاريخ الشخصي، المكاسب. فيرده القرآن: بعد المناسك لا ترجع إلى نفسك، بل ازدد ذكرًا لله.

وهذا يحدث في حياتنا كثيرًا؛ قد يخرج الإنسان من موسم إيماني، أو صلاةٍ مؤثرة، أو عملٍ صالح، ثم يعود إلى مفاخرة النفس، أو مقارنة الناس، أو صخب الدنيا. كأن القلب يحتاج بعد كل طاعة إلى ذكرٍ يحرس الطاعة من السرقة. فالعمل الصالح لا يكتمل بمجرد وقوعه، بل يحتاج إلى ذكرٍ بعده يصونه من العجب، ومن النسيان، ومن الارتداد إلى مركز الذات.

ولذلك تكرر في العبادات هذا المعنى: بعد الصلاة ذكر، وبعد الحج ذكر، وفي الصيام ذكر، وفي الجهاد ذكر، وفي التجارة ذكر، وفي الخوف ذكر، وفي النعمة ذكر، وفي المصيبة ذكر. كأن الوحي يقول للإنسان: لا توجد مساحة في حياتك ينبغي أن تكون بلا ذكر؛ لأن كل مساحة تخلو من ذكر الله قد يحتلها غيره.

وهذا لا يعني أن يترك الإنسان شؤونه، بل أن يدخل شؤونه بقلبٍ ذاكر. يعمل وهو ذاكر، فيحفظه الذكر من الخيانة والغرور. يتكلم وهو ذاكر، فيحفظه الذكر من الفحش والظلم. يفرح وهو ذاكر، فيحفظه الذكر من البطر. يحزن وهو ذاكر، فيحفظه الذكر من القنوط. ينجح وهو ذاكر، فيحفظه الذكر من نسبة الفضل إلى نفسه وحدها. يفشل وهو ذاكر، فيحفظه الذكر من احتقار نفسه واليأس من رحمة الله.

بهذا يتحول الذكر من عبادةٍ مخصوصة إلى مناخٍ داخلي. لا يكون مجرد لحظاتٍ منفصلة، بل يصير روحًا تسري في اليوم كله، ومركزًا يعود إليه الوعي كلما اختطفته الأطراف. وهذا هو معنى أن يعيش الإنسان ذاكرًا: ليس أن ينطق في كل ثانية بلفظٍ ظاهر، فهذا لا يطيقه كل أحد في كل حال، وإنما أن يبقى قلبه قريب الرجوع، سريع الانتباه، لا يطول اغترابه عن الله، ولا تستقر الغفلة فيه كأنها وطن.

وفي الحديث الصحيح: «**سبق المفردون**». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**».
والتفرد هنا ليس عزلةً سلبية عن الناس، بل سبقٌ داخلي. الذاكرون كثيرًا سبقوا لأنهم وجدوا مركز الطريق. قد يسبق غيرهم في مالٍ أو جاهٍ أو شهرة، لكنهم سبقوا إلى ما هو أعمق: حياة القلب. سبقوا لأنهم لم يسمحوا للدنيا أن تبتلعهم كاملين. سبقوا لأن ألسنتهم وقلوبهم بقيت موصولةً بالله وسط عالمٍ يميل بطبعه إلى شد الإنسان نحو الغفلة.

وكلمة **المفردون** تحمل إيحاءً عجيبًا؛ كأن الذاكر كثيرًا يصير منفردًا بمعنى شريف، لا لأنه يحتقر الخلق، بل لأنه لا يذوب في غفلتهم. له مسافة داخلية من الضجيج، وله باب سرٍّ مع الله، وله حياة لا تُرى كلها في الظاهر. إنه يعيش بين الناس، لكنه لا يستمد كل معناه منهم. يعمل في الدنيا، لكنه لا يدفن قلبه فيها. يفرح ويحزن، لكنه لا ينسى ربه في الحالين.

وهذه هي الحرية الحقيقية: أن يكون الإنسان في العالم دون أن يكون العالم مالكًا لقلبه.

والذكر هو طريق هذه الحرية؛ لأنه يوحد وجهة الوعي. وكلما توحدت وجهة الوعي، خفّ اضطراب النفس. ليس لأنها لم تعد تتألم، بل لأنها لم تعد موزعة بين أرباب كثيرة. إن القلب الموحد قد يحزن، لكنه لا يتفتت. وقد يخاف، لكنه لا ينهار. وقد ينتظر، لكنه لا يعبد الانتظار. وقد يُخذل، لكنه لا يجعل الخذلان تعريفه النهائي. في داخله مركز يعود إليه: الله.

ومن هنا نفهم أن الذكر ليس علاجًا جانبيًا للتوتر، بل تأسيسٌ توحيدي للوعي. إن الطمأنينة التي تنشأ من الذكر ليست نتيجة صوتٍ متكررٍ فقط، بل نتيجة معنى متكررٍ حتى يستقر:

الله أكبر.

الحمد لله.

سبحان الله.

لا إله إلا الله.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

أستغفر الله.

هذه الكلمات ليست زخارف روحية، بل مفاتيح إعادة التنظيم الداخلي. كل كلمة تفتح بابًا، وتغلق بابًا. تفتح باب التعظيم، وتغلق باب تضخم الخوف. تفتح باب الرضا، وتغلق باب السخط. تفتح باب التنزيه، وتغلق باب سوء الظن. تفتح باب التوحيد، وتغلق باب العبوديات الخفية. تفتح باب الافتقار، وتغلق باب الغرور. تفتح باب الرجوع، وتغلق باب الإصرار.

فإذا داوم العبد عليها، لم يعد كما كان. قد لا يرى التغيير دفعةً واحدة، لأن بناء القلب بطيء وعميق، ولكن الذكر يعمل فيه كما يعمل الماء في الأرض اليابسة؛ قطرة بعد قطرة، حتى تلين، ثم تخضر، ثم تنبت. وليس كل أثرٍ عظيم يظهر فورًا. بعض الأذكار تبني في القلب قوةً لا يعرفها صاحبها إلا يوم تأتيه المحنة، فيجد نفسه أثبت مما كان، وأهدأ مما توقع، وأقدر على الرجوع مما ظن. عندها يعلم أن الكلمات التي كان يرددها لم تكن تضيع، بل كانت تبني في الخفاء جدارًا من نور.

ومن أعظم الخسارة أن يحرم الإنسان نفسه من هذا البناء، ثم يشكو من فوضى الداخل. كيف يطلب القلب سكينةً وهو لا يعود إلى مصدر السكينة؟ كيف يريد الإنسان اتزانًا وهو يسمح لكل شيءٍ أن يتكلم في داخله إلا ذكر الله؟ كيف يطلب معنىً وهو يملأ قلبه بما يشتته ثم لا يفتح له باب الوحي والذكر؟

إن القلب ليس آلةً صماء، بل كائنٌ متأثر بما يلازمه. ما تكرره عليه يصير جزءًا من رؤيته. إن كررت عليه الخوف، صار خوّافًا. وإن كررت عليه السخط، صار ساخطًا. وإن كررت عليه المقارنة، صار حسودًا أو منكسرًا. وإن كررت عليه ذكر الله، بدأ يتعلم الطمأنينة، والتعظيم، والرجاء، والحياء، والافتقار.

ولهذا كان الذكر الكثير ضرورةً لا ترفًا، ودواءً لا زينة، وبناءً لا عادة.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن أن نقرر هذه القاعدة:

الغفلة تشتت الوعي لأنها تجعل الأشياء كلها تتنافس على قلب الإنسان، أما الذكر فيوحد الوعي لأنه يعيد القلب إلى الله، فإذا عاد القلب إلى الله عادت الأشياء إلى أحجامها، وعاد الإنسان إلى موضعه، وعادت الحياة إلى معناها.

فالذاكر ليس إنسانًا فارغًا يهرب من الواقع بالكلمات، بل إنسانٌ أدرك أن الواقع بلا ذكر يتحول إلى غابةٍ من المخاوف والرغبات، وأن القلب بلا مركز يصبح نهبًا لكل عابر، وأن النجاة لا تبدأ دائمًا من تغير الخارج، بل من عودة الداخل إلى قبلته.

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾:

أي اجعلوا ذكري مركز حياتكم، أفتح لكم من فضلي وذكري ورحمتي ما يخرجكم من هامش النسيان إلى شرف الصلة، ومن فوضى التشتت إلى سكينة الحضور، ومن عبودية الأشياء إلى حرية العبودية لله.

الفَصْلُ الرَّابِع

مِنْ سَطْوَةِ الأَنَا إِلَى رَحَابَةِ العُبُودِيَّة

ليست مشكلة الإنسان الكبرى أنه ضعيف، بل أنه ينسى ضعفه. وليست مأساته أنه محتاج، بل أنه يتصرف أحيانًا كأنه مكتفٍ. وليست خطورته في أنه يملك رغباتٍ ومخاوف وآمالًا، فهذه من طبيعة تكوينه، وإنما خطورته حين تتحول هذه الذات الصغيرة، بكل قلقها وجرحها ورغبتها في الاعتراف والسيطرة، إلى مركزٍ باطنيٍّ تدور حوله الأشياء، فيرى الإنسان العالم من خلال نفسه وحدها، ويقرأ الناس من خلال مصلحته، ويفسر الأقدار من خلال رضاه وسخطه، ويظن أن الحياة ينبغي أن تنحني دائمًا لمراده، فإذا خالفته الأيام اضطرب، وإذا تأخرت عنه العطايا اتهم، وإذا نُسي أو جُهل أو خُذل أحس كأن وجوده كله قد أُلغي.

وهنا يأتي الذكر لا بوصفه ترديدًا لفظيًا فحسب، بل بوصفه عملية تحرير كبرى للإنسان من سجن ذاته. فالإنسان حين يذكر الله لا يضيف اسمًا شريفًا إلى لسانه فقط، بل يزيح الأنا من عرشها الداخلي، ويعيد القلب إلى مقام العبودية، ويعلن أن المركز الحقيقي للوجود ليس رغبته، ولا صورته، ولا خوفه، ولا جرحه، ولا طموحه، بل الله سبحانه وتعالى، الواحد الأحد، الذي إليه يرجع الأمر كله.

ولهذا كان الذكر أعمق علاجٍ لتضخم الأنا؛ لأنه لا يشتبك معها من سطحها، بل يردها إلى أصلها: **أنتِ أيتها النفس لستِ ربًّا، وإنما أنتِ عبدةٌ فقيرة، مخلوقةٌ مربوبة، قائمةٌ بفضل الله، محمولةٌ برحمته، محاسبةٌ بين يديه، لا تملكين لنفسك نفعًا ولا ضرًا إلا بما شاء الله.**

ومن تأمل القرآن وجد أن أخطر صور الانحراف تبدأ حين تتضخم الأنا حتى تنسى مقام العبودية. قال الله تعالى في قارون: ﴿**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ**﴾ القصص: ٧٨

هذه الجملة ليست مجرد غرور اقتصادي، بل هي بيانٌ دقيق لمرضٍ داخلي عظيم: نسبة الفضل إلى الذات وحدها. قارون لم ينكر النعمة في ظاهرها، لكنه قطعها عن مصدرها، وردها إلى نفسه: ﴿**عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ**﴾. وهذه هي لحظة فساد الوعي؛ حين يرى الإنسان ما عنده ولا يرى من آتاه، ويرى كفاءته ولا يرى توفيق الله، ويرى سعيه ولا يرى فتح الأبواب، ويرى حصاده ولا يرى المطر الذي لم يصنعه، والأرض التي لم يخلقها، والعافية التي لم يضمنها، والعقل الذي لم يمنحه نفسه.

والذكر يجيء ليكسر هذا الوهم قبل أن يستحكم. فحين يقول العبد: **الحمد لله،** فهو يعلن أن النعمة ليست صنيعة الأنا وحدها. وحين يقول: **ما شاء الله لا قوة إلا بالله،** فهو يحرس قلبه من أن يغتر بما في يده. وحين يقول: **لا حول ولا قوة إلا بالله،** فهو يرد كل تحولٍ وقوةٍ إلى الله. وحين يقول: **أستغفر الله،** فهو يعترف أن نفسه ليست نقيةً من النقص، وأنه لا يملك أن يزكيها إلا بفضل الله.

إن الذكر بهذا المعنى ليس ضد الإنجاز، ولا ضد السعي، ولا ضد أن يعرف الإنسان موهبته وقيمته ومسؤوليته، ولكنه ضد تحويل النعمة إلى صنمٍ للذات، وضد أن ينسى الإنسان أن كل ما في يده قابلٌ للزوال، وأن كل ما بلغه من خيرٍ لم يكن ليبلغه لولا فتح الله وتوفيقه وستره ورحمته.

ومن هنا نفهم لماذا جاء القرآن بتوجيهٍ عظيم حين يعجب الإنسان بما يملك أو يرى ما يسره: ﴿**وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ**﴾ الكهف: ٣٩

هذه الآية في قصة صاحب الجنتين ليست مجرد أدبٍ لفظي عند رؤية النعمة، بل هي حمايةٌ للنعمة من الداخل قبل الخارج. صاحب الجنتين لم يسقط أولًا لأن جنته أُهلكت، بل سقط حين دخلها بقلبٍ مشغولٍ بها عن الله، ورأى امتداد الثمر والماء والمال والولد كأنه ضمانٌ أبدي. لقد صارت الجنة في عينه أكبر من حقيقتها، وصار ما يملكه دليلًا عنده على استحقاقٍ ذاتي، بل امتد به الغرور حتى قال: ﴿**مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً**﴾ الكهف: ٣٥-٣٦

هكذا يفعل تضخم الأنا بالوعي: يبدأ من الإعجاب بالملك، ثم ينتقل إلى وهم الدوام، ثم يضعف استحضار الآخرة، ثم يتعامل الإنسان مع النعمة كأنها برهان أمانٍ مطلق. فجاءت الكلمة المنقذة: ﴿**مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ**﴾. إنها ليست كلمة تجميلية، بل إعادة ترتيب كاملة للمشهد: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا قوة لهذا الجمال ولا لهذا البقاء ولا لهذه الثمرة ولا لهذا المال إلا بالله.

ولو قالها صاحب الجنتين بقلبه قبل لسانه، لربما دخل جنته وهو يراها نعمةً لا إلهًا نفسيًا، ووديعةً لا ملكًا مطلقًا، وابتلاءً لا شهادة تفوقٍ نهائية. فالذكر هنا يمنع النعمة من أن تستعبد صاحبها، ويمنع النجاح من أن يتحول إلى حجاب، ويمنع الجمال من أن يقطع الإنسان عن المنعم سبحانه.

ومن أعمق وظائف الذكر أنه يعلّم الإنسان أن يقول: **أنا عبد**، لا بلسان الادعاء، بل بحقيقة الشعور. والعبودية في القرآن ليست إلغاءً لقيمة الإنسان، بل هي تحريره من كل عبوديةٍ مهينةٍ لما سوى الله. فالإنسان لا يستطيع أن يكون بلا عبودية؛ إن لم يكن عبدًا لله صار عبدًا لشيءٍ آخر: لهواه، أو خوفه، أو سمعته، أو ماله، أو من يحب، أو من يكره، أو لجمهورٍ يتقلب، أو لماضٍ لا ينتهي، أو لمستقبلٍ لا يأتي.

والذكر يردّ الإنسان إلى أشرف عبودية؛ عبوديةٍ لا تسحقه بل ترفعه، ولا تلغيه بل تعرّفه بنفسه، ولا تقيده بل تحرره من عبودية الخلق والأشياء. ولذلك كان أشرف وصفٍ للنبي ﷺ وصف العبودية في المقامات الكبرى: ﴿**سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا**﴾ الإسراء: ١

في مقام الإسراء، حيث المعجزة والرفعة والاصطفاء، لم يقل: بنبيه، ولا برسوله في هذا الموضع، مع ثبوت نبوته ورسالته، بل قال: ﴿**بِعَبْدِهِۦ**﴾. كأن أعلى مقامات الرفعة أن يتحقق الإنسان بأكمل مقامات العبودية. فالعبد الحق ليس منخفضًا لأنه عبد لله، بل هو مرفوعٌ بهذه العبودية؛ لأن شرف العبد من شرف من انتسب إليه عبوديةً ومحبةً وطاعة.

ومن هنا يكون الذكر طريقًا إلى الرفعة لا إلى الانكماش. حين يقول العبد: **سبحان ربي الأعلى** في سجوده، فهو في أدنى هيئة جسدية، لكنه في أعلى مقامٍ روحي؛ لأن الجبهة التي تنحني لله لا تنحني ذلًا للخلق، والقلب الذي يعرف عظمة ربه لا ينهار أمام عظمةٍ مزيفة. ولهذا قال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**». وهذا قربٌ يليق بجلال الله، قرب رحمةٍ وإجابةٍ وفضل، لا يشبه قرب المخلوقات، تعالى الله عن المماثلة.

تأمل العجب: أقرب مقامات العبد وهو في صورة الانخفاض. لماذا؟ لأن الأنا في السجود تفقد صلابتها الكاذبة. الجبهة التي يرفعها الإنسان عادةً علامةً لاعتداده، يضعها على الأرض لله. اللسان يقول: **سبحان ربي الأعلى**، والجسد يقول: أنا عبد. وفي هذا الانسجام بين الكلمة والهيئة يتحرر الإنسان من أكذوبة السيطرة. إنه لا يصغر بالسجود، بل يصغر فيه ما كان يستعبده، وتكبر في قلبه حقيقة الله، فيخرج من السجود أخف من كبريائه، وأقرب إلى صفاء العبودية.

ومن هنا نفهم لماذا كان الذكر ملازمًا للاستغفار. فالاستغفار ليس إقرارًا بالذنب وحده، بل تدريبٌ دائم على عدم تقديس الذات. قال الله تعالى:
﴿**وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ المزمل: ٢٠

وقال سبحانه: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا**﴾ النصر: ٣

وهذه الآية الأخيرة خاصةً تفتح بابًا عظيمًا في فقه العبودية؛ لأنها جاءت في سياق النصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، حيث قد تميل النفس

البشرية إلى الشعور بالاكتمال والإنجاز، فجاء الأمر لا بالاحتفال المجرد، بل بالتسبيح والحمد والاستغفار. كأن الوحي يعلّم المؤمن أن لحظة النجاح أخطر أحيانًا من لحظة الهزيمة؛ لأن الهزيمة تكسر النفس فتستغيث، أما النجاح فقد ينفخها فتغفل.

﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾: نزّه ربك واحمده، فلا تنسب الفتح إلى ذاتك استقلالًا.
﴿**وَٱسْتَغْفِرْهُ**﴾: ارجع إلى مقام العبد، حتى بعد أعظم الإنجازات.
﴿**إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا**﴾: الباب مفتوحٌ للرجوع، حتى في لحظة التمام الظاهر.

وهذا من أرقى ما يفعله الذكر في النفس: أنه يحرس الإنسان في لحظات القوة كما يواسيه في لحظات الضعف. نحن نظن أننا نحتاج إلى الذكر حين ننكسر فقط، لكن القرآن يعلّمنا أننا نحتاج إليه أيضًا حين ننتصر، حين ننجح، حين نُمدح، حين تتسع الدنيا، حين يكثر الأتباع، حين يلمع الاسم. لأن النفس في هذه المواطن قد تُسرق من غير أن تشعر، وقد تتحول الطاعة نفسها إلى مادة للأنا، وقد يصير العمل الصالح بابًا للعجب إن لم يحرسه التسبيح والاستغفار.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لن يُدخِلَ أحدًا عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ ورحمة**». هذا الحديث ليس تقليلًا من شأن العمل، فالعمل مأمورٌ به، والجنة تُنال برحمة الله ثم بما جعل الله من أسباب الطاعة، ولكنه يهدم وهم الاستحقاق المغرور. فلا يدخل العبد الجنة كدائنٍ يطالب الله بثمن عمله، بل كعبدٍ فقيرٍ يرجو فضل ربه. العمل طريق العبودية، لكن الرحمة هي الفضل الواسع الذي لا يستغني عنه أحد.

وهذا المعنى إذا دخل قلب الذاكر طهّره من آفتين: آفة اليأس إذا رأى تقصيره، وآفة العجب إذا رأى عمله. فهو لا ييأس؛ لأن الله غفور رحيم. ولا يعجب؛ لأنه يعلم أن عمله نفسه نعمة تحتاج إلى قبول. فلا ينظر إلى الطاعة كملكيةٍ يتفاخر بها، بل كأمانةٍ يرجو أن يتقبلها الله منه.

ومن أجل ذلك كان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعد رفع قواعد البيت: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ البقرة: ١٢٧

أي مقام هذا؟ نبيان كريمان يرفعان قواعد البيت الحرام، ومع ذلك لا يقولان: أنجزنا، بل يقولان: **تقبل منا**. هذه هي العبودية في أصفى صورها؛ أن تعمل أعظم الأعمال، ثم لا ترى نفسك أكبر من سؤال القبول. والعمل الصالح إذا لم يصحبه ذكرٌ واستغفارٌ ورجاء قبول، قد يتحول في الداخل إلى أثرٍ من آثار النفس لا إلى مقامٍ من مقامات العبودية.

ومن هنا يظهر الفرق بين ذاكرٍ يزداد بذكره تواضعًا، وغافلٍ قد يزداد بعمله غرورًا. فالذكر الحقيقي لا يصنع شخصيةً متعاليةً على الناس، بل يصنع قلبًا يعرف فضل الله عليه، فيرحم الخلق، ويعرف نقص نفسه، فلا يتكبر. أما إذا صار الذكر سببًا لاحتقار الآخرين، فهناك خللٌ في فهم الذكر؛ لأن من عرف الله حقًا عرف فقره، ومن عرف فقره لم يتضخم على عباد الله.

ولذلك كان التسبيح مقرونًا كثيرًا بالحمد؛ لأن التسبيح يطهّر تصورك عن الله، والحمد يطهّر نظرتك إلى النعمة. فإذا قلت: **سبحان الله وبحمده**، فأنت تجمع بين التنزيه والاعتراف بالفضل. تنزّه الله عن النقص، وتحمده على الكمال والإنعام. وهذه الكلمة الخفيفة على اللسان الثقيلة في الميزان، كما في الحديث

الصحيح: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»، تكشف أن الذكر في ظاهره يسير، ولكنه في ميزان الله عظيم. وليس عظمته من طول العبارة، بل من صدق ما تحمله من تنزيه وتعظيم وخضوع.

وهنا يظهر وجهٌ آخر من تحرير الأنا: أن الإنسان لا يعلم دائمًا أوزان الأعمال عند الله. قد يحتقر كلمةً صادقة، وهي عند الله عظيمة. وقد يعظم عملًا ظاهرًا، وفيه من حظ النفس ما ينقصه. فالذكر يعلّم العبد أن الميزان ليس بيده، وأن عليه أن يصدق ويكثر من الخير، ثم يترك القبول لله. وهذا يحرر الإنسان من عبودية تقييم نفسه لنفسه، ومن عبودية تقييم الناس له أيضًا.

إن الأنا تحب أن تمتلك الميزان؛ تريد أن تعرف مقدارها، ومكانتها، وتأثيرها، وصورتها في العيون. أما العبودية فتعلّم الإنسان أن يعمل لله، ويذكر الله، ويستغفر الله، ويرجو الله، ولا يجعل نفسه قاضيًا نهائيًا على مقامه. وهذا لا يلغي المحاسبة، بل يطهرها؛ فالمحاسبة شيء، والهوس بالذات شيء آخر. المؤمن يحاسب نفسه ليصلحها، لا ليعبد صورته.

ومن هنا نفهم قول الله تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ**﴾ النجم: ٣٢

هذه الآية من أعظم ما يكسر غرور النفس الدينية. قد يزكي الإنسان نفسه بعلمه، أو عبادته، أو نياته، أو مواقفه، أو تاريخه، أو حتى بألمه وتضحياته. لكن القرآن يرده إلى الحقيقة: ﴿**هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ**﴾. ليس المطلوب أن تحتقر نفسك احتقارًا مرضيًا، ولا أن تنكر نعمة الله عليك، بل أن لا تجعل نفسك

مصدر الشهادة النهائية لنفسها. دع علم السرائر لمن يعلمها، واشتغل بالصدق والذكر والاستغفار.

والذكر من أقوى ما يعين على هذا؛ لأن الذاكر كلما قال: **الله أكبر**، تذكر أن الله أكبر من صورته عن نفسه. وكلما قال: **أستغفر الله**، تذكر أن في داخله ما يحتاج إلى تطهير. وكلما قال: **الحمد لله**، تذكر أن الخير الذي فيه من فضل الله. وكلما قال: **لا حول ولا قوة إلا بالله**، تذكر أن ثباته ليس ملكًا مضمونًا. وهذه المعاني تجعل القلب يقظًا، لا مغرورًا، مطمئنًا لا مدعيًا.

وليس تحرير الإنسان من الأنا معناه كسر إرادته أو إضعاف شخصيته. على العكس؛ العبودية الصادقة هي التي تمنح الإنسان قوةً متزنة. فالذي لا يعبد صورته لا ينهار إذا تشوهت صورته عند الناس. والذي لا يجعل النجاح إلهًا لا يموت داخليًا إذا فشل. والذي لا يجعل المدح غذاءه الأعلى لا يجوع إذا حُرم منه. والذي يعرف أنه عبد لله لا يبيع دينه ليشتري رضا الناس.

ومن هنا كان الذكر مصدرًا للكرامة. فالعبد الذاكر يزداد تواضعًا لله، لكنه لا يذل للباطل. يلين قلبه، لكن لا تضعف بوصلته. يعرف قدر نفسه، فلا يتكبر؛ ويعرف قدر ربه، فلا يستعبدُه الخلق. وهذا التوازن لا تصنعه الأنا المتضخمة ولا النفس المنهارة، بل تصنعه العبودية.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ آل عمران: ١٧٣

هذه الآية تكشف كيف يعمل الذكر في مواجهة الخوف الجماعي. قيل لهم: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ**﴾، أي إن الخطاب يريد أن يجعل الناس مركز الرهبة. لكن الذاكرين ردوا المركز إلى الله: ﴿**حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾. لم يقولوا: نحن أقوى بذواتنا، ولم ينتفخوا بشجاعةٍ ذاتية، بل لجأوا إلى الكفاية الإلهية. وهذا هو الفرق بين شجاعة الأنا وشجاعة العبودية. شجاعة الأنا تقول: أنا أقدر. أما شجاعة العبودية فتقول: حسبي الله.

وشجاعة الأنا هشة؛ لأنها تنهار حين تنكشف حدودها. أما شجاعة العبودية فأثبت؛ لأنها تعرف ضعفها، لكنها تستند إلى الله. ولذلك جاء بعدها: ﴿**فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ آل عمران: ١٧٤

القرآن لا ينسب النجاة إلى صلابة نفسية مجردة، بل إلى نعمةٍ وفضل. وهذا يربي القلب على أن لا يجعل حتى ثباته صنمًا جديدًا. ثبتوا، نعم، ولكن من الذي ثبتهم؟ قالوا، نعم، ولكن من الذي ألهمهم؟ نجوا، نعم، ولكن بأي فضل؟ إنها التربية القرآنية العميقة التي ترد كل خير إلى الله، دون أن تلغي مسؤولية العبد.

ومن هنا يمكن القول إن الذكر يصنع إنسانًا لا يدور حول نفسه، بل حول عبوديته. وهذا التحول هو بداية الحرية الداخلية. لأن أكثر عذاب الإنسان يأتي من دورانه المرضي حول ذاته: ماذا قالوا عني؟ ماذا فاتني؟ لماذا لم أحصل؟ كيف أبدو؟ هل أنا متقدم؟ هل أنا متأخر؟ هل يحبونني؟ هل نسوني؟

هل اعترفوا بي؟ هذه الأسئلة حين تتحول إلى مركز الحياة تأكل القلب، وتجعله هشًا أمام كل حركةٍ خارجية.

ثم يأتي الذكر فيسأل سؤالًا أعلى: أين أنت من الله؟
هل قلبك ذاكر؟
هل أنت صادق؟
هل ما تطلبه يرضيه؟
هل ما تخافه أكبر في قلبك من ربك؟
هل عملك له أم لصورتك؟
هل حزنك يقودك إليه أم يقطعك عنه؟

هذه الأسئلة لا تلغي أسئلة الحياة، لكنها ترتبها. فالإنسان لا ينجو من قلق الأنا بأن يكره نفسه، بل بأن يعبد ربه. إن كراهية النفس ليست عبودية، بل قد تكون صورةً مقلوبةً من الانشغال بالذات. أما الذكر فينقل القلب من مراقبة صورته إلى مراقبة صلته بالله، ومن التمركز حول الجرح إلى التوجه نحو الشفاء، ومن سؤال: كيف أبدو؟ إلى سؤال: كيف أكون عبدًا أرضى لله؟

ولذلك فإن من أعظم ثمار الذكر أنه يعلّم الإنسان الخفاء. فالخفاء مدرسةٌ قاسيةٌ على الأنا، لكنها رحيمةٌ بالقلب. أن تذكر الله حيث لا يراك أحد، أن تستغفر دون أن يعلم أحد، أن تقوم بطاعةٍ لا تدخل في سجل المديح، أن تقول في نفسك: يا رب، ولا يسمعك إلا الله؛ هذه الأعمال تربي في الداخل منطقةً لا يملكها الناس، ولا تصل إليها سلطة الصورة.

قال الله تعالى: ﴿**وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ**﴾ الأعراف: ٢٠٥

الذكر في النفس يُضعف شهوة المشهد. إنه يبني علاقةً لا تقوم على الجمهور. وكل عبادةٍ لا تحتاج إلى جمهور هي أقدر على تطهير القلب من عبودية الجمهور. وهذا لا يعني أن الذكر العلني مذموم بإطلاق، فهناك ذكرٌ وتعليمٌ وشعائر، ولكن القلب يحتاج إلى سرٍّ بينه وبين الله، إلى موضعٍ لا يدخل فيه الناس، حتى لا تصير كل عبادته قابلةً للعرض، ولا كل صفائه مادةً للظهور.

وفي زمنٍ صارت فيه النفس تميل إلى تحويل كل شيءٍ إلى صورة، يصبح الذكر الخفي ضرورةً تربويةً عظمى. إنه يعلّم العبد أن أجمل ما فيه قد لا يراه أحد، وأن أعظم لحظات حياته قد لا تُلتقط، وأن ما بينه وبين الله أبقى من كل ما بينه وبين الناس. وهذا وحده كافٍ لتكسير سلطان الأنا الحديثة، التي تريد أن تُرى دائمًا، وأن تُقاس دائمًا، وأن تُعلّق قيمتها دائمًا بردود الآخرين.

ومن لطائف الذكر أنه يجمع بين كسر الأنا وترميم النفس. فهو لا يحطم الإنسان، بل يحطم الوهم الذي يؤذيه. لا يقول له: أنت لا قيمة لك، بل يقول له: قيمتك ليست من ذاتك مستقلةً عن الله، ولا من أعين الناس، بل من كونك عبدًا لله، مكرمًا بالتكليف، مفتوحًا لك باب الرجوع، قادرًا على أن تذكر ربك فيذكرك بفضله. وهذا الفرق دقيقٌ جدًا؛ لأن بعض الناس يظن التواضع احتقارًا للنفس، وليس كذلك. التواضع الحق أن ترى نفسك في موضعها الصحيح: لا تتأله، ولا تنهار؛ لا تتكبر، ولا تحتقر نعمة الله عليك؛ لا تدعي الكمال، ولا تنسى التكريم.

والذكر هو الذي يحفظ هذا الميزان.

سبحان الله: تنزيه لله عن النقص، وتطهير للنفس من سوء الظن.

الحمد لله: اعتراف بالنعمة، لا إنكار للحياة.

الله أكبر: كسر للطغيان الداخلي، لا كسرٌ لقيمة الإنسان.

أستغفر الله: رجوع من الذنب، لا غرقٌ في اليأس.

لا حول ولا قوة إلا بالله: افتقارٌ إلى الله، لا تعطيلٌ للإرادة.

ومن هنا كان الذكر تربيةً للحرية، لا مجرد تهدئةٍ للاضطراب. فالذاكر يتحرر من وهم السيطرة؛ لأنه يعلم أن الأمر لله. ويتحرر من وهم الاستحقاق؛ لأنه يعلم أن الفضل لله. ويتحرر من وهم الصورة؛ لأنه يعلم أن علم الله أصدق من نظر الناس. ويتحرر من وهم الخوف؛ لأنه يعلم أن الخلق لا يملكون له إلا ما شاء الله. ويتحرر من وهم الاكتفاء؛ لأنه يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه الحرية هي ثمرة العبودية، لا نقيضها. فكلما كان الإنسان أعبد لله كان أحرر من غيره، وكلما ضعف مقام العبودية فيه كثرت عبودياته الخفية. قد يرفض الإنسان العبودية لله باسم الحرية، ثم يعيش عبدًا لرغباته، لسوقه، لجمهوره، لغضبه، لصورته، لمخاوفه، لمن يحب، لمن يكره. أما العبد الذاكر فقد عرف السيد الحق، فتحرر من السادة الزائفين.

ولذلك فإن الذكر يبدأ صغيرًا على اللسان، لكنه إذا صدق صار ثورةً على كل مركزٍ كاذبٍ داخل الإنسان. يبدأ بكلمة، ثم يهدم مملكةً من الأوهام. يقول العبد: **الله أكبر**، فتسقط عروشٌ خفية. يقول: **لا إله إلا الله**، فتفقد الأشياء حقها في

التحكم المطلق. يقول: **الحمد لله**، فينقشع سحاب السخط. يقول: **أستغفر الله**، فتتصدع صلابة الكبر. يقول: **لا حول ولا قوة إلا بالله**، فيرجع من وهم الاكتفاء إلى نور الافتقار.

وهذا معنى أن ينتقل الإنسان من سطوة الأنا إلى رحابة العبودية. فالأنا سجنٌ ضيق، مهما بدا واسعًا؛ لأنها تجعل الإنسان محكومًا بنفسه، بدفاعه عنها، بخوفه عليها، بغضبه لها، بجوعها إلى الاعتراف. أما العبودية لله فرحبة؛ لأنها تجعل الإنسان أكبر من جرحه، وأوسع من صورته، وأثبت من مدح الناس وذمهم، وأقرب إلى الصدق، وأشد قدرةً على احتمال الحياة دون أن يجعل نفسه إلهًا صغيرًا في مركزها.

إن الذاكر لا يقول: لا شأن لي بنفسي. بل يقول: نفسي أمانةٌ أزكيها بذكر الله، لا صنمٌ أعبده من دون الله.
ولا يقول: لا قيمة لعملي. بل يقول: عملي نعمةٌ أرجو قبولها، لا تاجٌ أتكبر به.
ولا يقول: لا أخاف شيئًا. بل يقول: خوفي مخلوقٌ محدود، والله أكبر.
ولا يقول: لا أحتاج إلى الناس. بل يقول: أتعامل مع الناس، لكن قلبي لا يجعلهم مصدر قيمتي النهائية.

وهذا هو النضج الإيماني الذي يصنعه الذكر: أن يأخذ الإنسان مكانه الصحيح في الوجود. لا يضخم نفسه حتى يطغى، ولا يمحوها حتى ينهار، بل يضعها في مقام العبودية؛ حيث تكون في غاية الفقر إلى الله، وفي غاية الكرامة بالله.

وفي نهاية هذا الفصل نصل إلى قاعدة كبرى: **الذكر لا يقتل الذات، بل يخلّصها من تألّهها الكاذب؛ يخرجها من ضيق الدوران حول نفسها إلى سعة الوقوف بين يدي الله، فيصير الإنسان أهدأ لأنه لم يعد ربَّ نفسه، وأقوى لأنه استند إلى ربه، وأصدق لأنه عرف حجمه، وأكرم لأنه تحرر من عبودية ما سوى الله.**

وهكذا تتجلى آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ في بُعدٍ جديد:
اذكروني لتخرجوا من مركزية أنفسكم إلى نور عبوديتي.
اذكروني لأحرركم من الأنا التي تخيفكم وتستعبدكم وتوهمكم بالاكتفاء.
اذكروني أذكركم بفضلي، ومن ذكره الله بفضله لم تحتج روحه أن تتسوّل قيمتها من أبواب الخلق.

فالعبد الذاكر ليس ذاتًا منطفئة، بل ذاتٌ مهتدية.
وليس إنسانًا مهزومًا أمام الحياة، بل إنسانٌ عرف أن أعظم انتصار له أن لا يكون عبدًا لنفسه.
وليس هاربًا من العالم، بل عائدًا إليه بقلبٍ تحرر من أعظم طاغيةٍ خفي:
الأنا حين تنسى الله.

الفَصْلُ الخَامِس

الطُّمَأْنِينَةُ لَيْسَتْ تَخْدِيرًا: الذِّكْرُ بَوَصْفِهِ أَعْلَى دَرَجَاتِ اليَقَظَة

من أكثر الأخطاء شيوعًا في فهم الذكر أن يُنظر إليه بوصفه مهربًا نفسيًا من ضغط الواقع، أو تخديرًا وجدانيًا يلجأ إليه الإنسان حين يعجز عن مواجهة الحياة، كأن الذاكر يغلق عينيه عن العالم، ويستبدل تعقيد الواقع بألفاظٍ مريحةٍ تمنحه هدنةً مؤقتة، ثم يعود الواقع كما كان، ويعود القلب إلى قلقه الأول. وهذا الفهم لا يظلم الذكر وحده، بل يظلم الإنسان أيضًا؛ لأنه يتصور أن أعماق النفس لا تسكن إلا بالخداع، وأن الدين لا يعمل في الإنسان إلا حين يخفف عنه رؤية الحقيقة، مع أن القرآن لا يربّي الإنسان على إغماض العين، بل على فتحها بنورٍ أعلى.

فالذكر في جوهره ليس خروجًا من الواقع، بل دخولٌ إلى طبقته الأعمق. إنه لا يقول للإنسان: لا ترى الألم، بل يقول له: لا ترَ الألم منفصلًا عن الله. ولا يقول له: لا ترى الأسباب، بل يقول له: لا تجعل الأسباب آلهةً صامتةً تتحكم في قلبك. ولا يقول له: لا تخف، بل يقول له: لا تمنح الخوف حق السيادة. ولا يقول له: لا تحزن، بل يقول له: لا تجعل الحزن آخر تفسيرٍ للحياة. ومن هنا كانت الطمأنينة التي يمنحها الذكر طمأنينة وعي، لا طمأنينة غفلة؛ سكينة بصيرة، لا سكينة تعطيل.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾ الرعد: ٢٨

لم يقل: بذكر الله تنسى القلوب الواقع، بل قال: **تطمئن**. والطمأنينة ليست نسيانًا، بل استقرارٌ بعد اضطراب؛ وليست غيابًا عن الوعي، بل اكتمالٌ في مركز الوعي؛ وليست غيبوبةً شعورية، بل حضورٌ عميقٌ يجعل القلب يرى ما كان لا يراه حين كان أسيرًا للقلق. إن القلق يضيق مجال الرؤية؛ يجعل الإنسان لا يرى إلا الخطر، ولا يسمع إلا التهديد، ولا يتذكر إلا الخسارة، ولا يتوقع إلا الأسوأ. أما الذكر فيوسّع الرؤية، فيرى الإنسان الخطر ومعه لطف الله، ويرى الخسارة ومعها ما بقي من النعمة، ويرى المستقبل الغامض ومعه وعد الله، ويرى ضعفه ومعه باب الاستعانة.

فالذاكر ليس أقل وعيًا من الغافل، بل أكثر وعيًا؛ لأن الغافل يرى جزءًا من الواقع ويظنه كله، أما الذاكر فيرى الواقع ضمن أفقه الأعلى. الغافل يرى المرض فقط، والذاكر يرى المرض والابتلاء والأجر والدعاء والرجوع. الغافل يرى الفقد فقط، والذاكر يرى الفقد والصبر والبقاء لله والمعاد. الغافل يرى الظالم فقط، والذاكر يرى الظالم والعدل الإلهي ويوم الحساب. الغافل يرى السبب فقط، والذاكر يرى السبب ومسبب الأسباب.

ومن هنا يمكن القول إن الذكر لا يُسكّن القلب لأنه يخفي الحقيقة، بل لأنه يكشف ما كان محجوبًا منها. إنه يضيف إلى مشهد الدنيا مشهد الآخرة، وإلى مشهد الأسباب مشهد التدبير، وإلى مشهد الألم مشهد الأجر، وإلى مشهد الوحدة مشهد علم الله، وإلى مشهد العجز مشهد الاستعانة. وهذه الإضافة ليست خيالًا تعويضيًا، بل حقيقةٌ إيمانيةٌ يؤسسها الوحي. ولذلك كانت الطمأنينة ثمرةً للحق، لا ثمرةً للوهم.

وتأمل كيف يربط القرآن بين الذكر ومواجهة الشدة، لا الهروب منها. قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ الأنفال: ٤٥

لو كان الذكر تخديرًا، لما جاء الأمر به في لحظة اللقاء والمواجهة؛ لأن المخدر يُضعف الانتباه، أما الذكر هنا فهو شرطٌ من شروط الفلاح. إن الآية تجمع بين أمرين: **فاثبتوا** و **اذكروا الله كثيرًا**. الثبات حركةٌ عملية، والذكر حضورٌ قلبي. فلا يكفي أن يكون الجسد ثابتًا والسلاح حاضرًا والقلب منهارًا، ولا يكفي أن يتكلم اللسان بالذكر والجسد تاركٌ لمقام المسؤولية. إن القرآن يبني الإنسان كاملًا: يعمل وهو يذكر، ويواجه وهو يتوكل، ويثبت وهو يعلم أن النصر ليس من قوته وحدها.

في ميدان الشدة، يحاول الخوف أن يستولي على الوعي كله، فيجعل العدو أكبر من حجمه، والمحنة أضخم من حقيقتها، والاحتمال السيئ كأنه قدرٌ واقع. فيأتي الذكر الكثير لا ليحجب الخطر، بل ليمنع الخطر من أن يصبح مطلقًا في القلب. وهذا فرقٌ حاسم. فالذاكر يرى الخطر، لكنه لا يؤلهه. يرى القوة المقابلة، لكنه لا ينسى قوة الله. يرى ضيق اللحظة، لكنه لا يحذف الغيب من الحساب.

وهذا ما نراه في قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ آل عمران: ١٧٣

الخطاب التخويفي كان يريد أن يحصر وعيهم في الناس: **الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم**. لكن الذكر نقل مركز الوعي من الناس إلى الله: **حسبنا الله ونعم الوكيل**. لم ينكروا أن الناس جمعوا، ولم يتظاهروا بأن الخطر غير موجود، لكنهم رفضوا أن يكون الخطر هو الحقيقة النهائية. إنهم لم يهربوا من الواقع، بل أضافوا إليه الحقيقة التي حذفها خطاب التخويف: الله كافٍ، والله وكيل، والله لا يعجزه جمع الناس.

وهذه هي اليقظة الإيمانية: أن تلتقط ما يحذفه الخوف من المشهد. فالخوف يعرض عليك نصف الحقيقة، والذكر يعيد النصف الآخر. الخوف يقول: الناس اجتمعوا، والذكر يقول: الله أكبر. الخوف يقول: الطريق ضاق، والذكر يقول: ومن يتق الله يجعل له مخرجًا. الخوف يقول: الأسباب ضعفت، والذكر يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. الخوف يقول: أنت وحدك، والذكر يقول: الله مع الصابرين بعلمه وتأييده ورحمته.

ومن هنا لا تكون الطمأنينة ضد اليقظة، بل هي شرطٌ لها؛ لأن القلب المذعور لا يرى جيدًا. الخوف إذا تجاوز حدّه شوّه الإدراك، وضيّق الاحتمالات، وجعل الإنسان يقرأ المستقبل من أسوأ أبوابه. أما الطمأنينة الإيمانية فتمنح القلب قدرةً على النظر المتزن؛ فلا ينهار عند رؤية الخطر، ولا يندفع بطيش، ولا يعبد الأسباب، ولا يحتقرها، ولا يتصرف كأن الأمر كله إليه، ولا يترك مسؤوليته بحجة أن الأمر كله لله.

الذكر بهذا المعنى يربّي عقلًا شجاعًا، لا قلبًا مخدرًا.

وفي القرآن نموذج عظيم لهذا الحضور في لحظة تبدو للمنطق الظاهر لحظة انسداد تام. قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام وقومه: ﴿**فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ الشعراء: ٦١-٦٢

هنا أمام البحر، وخلفهم فرعون وجنوده. المشهد في ظاهره مغلق. أصحاب موسى قرؤوا الواقع قراءةً أفقيةً مباشرة: **إنا لمدركون**. وهذا منطق الأسباب الظاهرة؛ البحر أمامنا، والعدو خلفنا، إذن انتهى الأمر. لكن موسى عليه السلام لم ينكر وجود البحر، ولم ينكر مطاردة فرعون، وإنما رأى ما لم يروه: ﴿**كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.

هذه ليست عبارة تهدئة. إنها يقظة نبوية. إنها إدخال الربوبية في قراءة اللحظة. **كلا** ليست عنادًا نفسيًا، بل يقينًا مبنيًا على معرفة بالله. و **معي ربي** ليست معيةً تشبه معية المخلوقين، بل معية حفظٍ ونصرٍ وهدايةٍ تليق بجلال الله. و **سيهدين** تكشف أن الهداية قد تأتي في اللحظة التي يعجز فيها المنطق الظاهر عن تخيل الطريق. لم يكن الطريق موجودًا في نظرهم، ثم صنع الله لهم طريقًا في البحر.

وهذا هو الفرق بين الذكر والوهم. الوهم يتجاهل البحر. أما اليقين فيراه، لكنه لا يجعله حدًا على قدرة الله. الوهم ينكر فرعون. أما الذكر يراه، لكنه لا يجعله أكبر من رب العالمين. الوهم يقول: لا مشكلة. أما الإيمان يقول: المشكلة كبيرة، لكن الله أكبر.

ومن هنا نعرف أن الذكر لا يعلّم الإنسان إنكار الواقع، بل يعلّمه ألا يعبد الواقع. والفرق بينهما جوهري. إنكار الواقع حماقة، وعبادة الواقع غفلة، أما الإيمان فهو أن ترى الواقع وتعمل فيه، وأنت تعلم أن الله فوقه علمًا وقدرةً وتدبيرًا.

ومثل هذا يظهر في قصة النبي ﷺ وصاحبه في الغار، حين قال الله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ**﴾ التوبة: ٤٠

في الغار، لم تكن الأسباب الظاهرة مطمئنة. الطلب قريب، والخطر حاضر، والمسافة بين النجاة والهلاك في حساب البشر قصيرة. ومع ذلك جاء التوجيه: **لا تحزن إن الله معنا**. لم يقل: لا تحزن لأن الخطر غير موجود. ولم يقل: لا تحزن لأننا نملك أسبابًا كافية بذاتها. بل قال: **إن الله معنا**. وهذا هو مركز الطمأنينة. إن السكينة لم تنزل لأن المشهد سهل، بل لأنها صلة بالله في مشهد صعب.

وهذا النص القرآني يعلّم المؤمن أن الحزن لا يعالج دائمًا بتغيير الظروف مباشرة، بل بتغيير معنى الحضور داخل الظروف. **إن الله معنا** ليست جملة شعورية عابرة، بل حقيقة تغير تفسير اللحظة كلها. إذا كان الله مع عبده بنصره وتأييده وحفظه ورحمته، فليس الخطر هو السيد، وليس الخوف هو الحكم النهائي، وليس ضيق المكان دليلًا على ضيق الفرج.

ومن هنا كانت السكينة في القرآن عطاءً إلهيًا ينزل على القلب، لا مجرد مهارة نفسية ينتجها الإنسان من نفسه. وهذا لا ينفي الأسباب النفسية المشروعة، ولكنه يضعها في مقامها. فالإنسان قد يتعلم التهدئة والتنفس

والتفكير المنظم، لكن السكينة القرآنية أعمق؛ لأنها ليست فقط هدوء الجهاز العصبي، بل هدوء القلب حين يستند إلى الله. ولهذا قال: ﴿**فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ**﴾. السكينة هنا فضلٌ من الله، يتلقاه القلب حين يكون موصولًا به.

والذكر من أعظم أبواب تلقي هذه السكينة؛ لأنه يهيئ القلب لاستقبالها. فالقلب الممتلئ بضجيج الخوف قلّ أن يسمع نداء الطمأنينة، والقلب المستغرق في الأسباب قلّ أن يرى لطف مسببها، والقلب الذي لا يذكر الله طويلًا يصبح غريبًا عن السكينة ولو أحاطت به وسائل الراحة. أما القلب الذاكر فهو أقرب إلى السكينة لأنه يعرف بابها.

ومن هنا يمكن فهم قول النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**».

هذا الحديث ليس تزيينًا للألم، ولا مساواةً بين السراء والضراء في الشعور الطبيعي، بل كشفٌ عن البنية العميقة التي يمنحها الإيمان لحياة المؤمن.

المؤمن لا يملك دائمًا اختيار ما يقع عليه، لكنه يملك بنور الله أن يحوّل ما يقع عليه إلى طريقٍ إلى الله: السراء تصير شكرًا، والضراء تصير صبرًا. وهكذا لا يعود الواقع مغلقًا؛ كل بابٍ فيه يمكن أن يكون باب عبودية.

وهذا من أعظم معاني اليقظة. الغافل إذا أصابته السراء بطر، وإذا أصابته الضراء قنط. أما المؤمن الذاكر، فالسراء لا تسكره عن المنعم، والضراء لا تقطعه عن الرحيم. في الحالين يبقى موصولًا: يشكر أو يصبر، يحمد أو يسترجع، يفرح أو يحتسب، لكنه لا يخرج من دائرة العبودية. وهذا ما يجعل

أمره كله خيرًا، لا لأن كل ما يقع له مريحٌ في طبعه، بل لأن كل ما يقع له يمكن أن يتحول بالإيمان والذكر إلى خيرٍ في عاقبته.

ومن هنا يظهر أن الذكر لا يلغي مشاعر الإنسان، بل يهذبها. لا يحرم عليه الحزن، فقد حزن الأنبياء. ولا يمنعه من الخوف الطبيعي، فقد خاف موسى عليه السلام في بعض المواطن. ولا يطلب منه أن يكون حجرًا لا يتأثر. لكنه يمنع المشاعر من أن تتحول إلى عقائد فاسدة. الحزن شعور، أما اليأس عقيدة شعورية منحرفة. الخوف شعور، أما اعتقاد أن الخلق يملكون الأمر استقلالًا فخلل في التوحيد. الألم شعور، أما اتهام القدر بالعبث فسوء ظن. والذكر يحرس الحد الفاصل بين الشعور الطبيعي والانحراف الداخلي.

ولهذا كان من أعظم أذكار المصيبة قول الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ**﴾ البقرة: ١٥٦-١٥٧

هذه الكلمة ليست طقسًا اجتماعيًا عند الموت والفقد فحسب، بل هي أعظم إعادة تعريف للمصيبة. **إنا لله**: نحن لسنا مالكين مستقلين لأنفسنا ولا لما نحب؛ نحن لله ملكًا وعبوديةً ومصيرًا. **وإنا إليه راجعون**: ليست المصيبة نهاية الخط، بل كل شيءٍ راجع إلى الله، والحساب عنده، والعوض عنده، واللقاء به، والحياة الدنيا ليست آخر المشهد.

فإذا قالها المؤمن عند المصيبة، فهو لا يمحو الألم، ولكنه يمنع الألم من أن يصير عبثًا. يضع الفقد داخل قوسين عظيمين: الملك لله، والرجوع إلى الله. وما بينهما يهون كثيرٌ من اضطراب المعنى، وإن بقي وجع القلب. ولهذا كان

الجزاء: **صلوات من ربهم ورحمة**. وهذه منزلة عظيمة؛ لأن القلب في المصيبة يكون في أشد حاجته إلى الرحمة والاهتداء. فمن ذكر الله في المصيبة، لم ينجُ فقط من الانهيار، بل دخل في مقام الهداية: **وأولئك هم المهتدون**.

فالذكر في المصيبة لا يعني أن الدموع خطأ، بل أن الدموع لا تسقط في الفراغ. ولا يعني أن القلب لا يتوجع، بل أن الوجع لا يقطع الحبل بين العبد وربه. ولا يعني أن المؤمن لا يشتاق، بل أن شوقه لا يتحول إلى اعتراضٍ على حكم الله. وهكذا يكون الذكر يقظةً في أعمق مواطن الانكسار.

ومن أشد ما يكشف يقظة الذكر أنه يحفظ الإنسان من تفسير الحياة تفسيرًا لحظيًا. الغافل ابن اللحظة الضاغطة؛ إذا ضاقت قال: انتهى كل شيء. وإذا اتسعت قال: لن تزول. وإذا فُتح له بابٌ ظن أنه مُكرمٌ لذاته. وإذا أُغلق عليه بابٌ ظن أنه مهان. أما الذاكر فيقرأ اللحظة في سياق أوسع: الدنيا ابتلاء، والآخرة مآل، والله يداول الأيام، والعبد لا يعلم العواقب، وقد يكون المنع عين الرحمة، وقد يكون العطاء ابتلاء، وقد يأتي الفرج من حيث لا يحتسب.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿**فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ النساء: ١٩

وقال سبحانه: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ البقرة: ٢١٦

هذه الآيات ليست دعوة إلى تعطيل التمييز، بل إلى تواضع الوعي أمام علم الله. الإنسان يرى من الحدث وجهًا، والله يعلم عواقبه وامتداداته وما يصلح العبد وما يفسده. فإذا كان القلب ذاكرًا، لم يجعل كراهته للشيء حكمًا نهائيًا عليه، ولم يجعل محبته للشيء برهانًا على خيريته. الذكر هنا يعلّم الإنسان أن يقول بعمق: الله يعلم وأنا لا أعلم. وهذه ليست جملة استسلام سلبي، بل قمة اليقظة؛ لأن من أعظم الجهل أن يظن الإنسان أن شعوره اللحظي يحيط بالحكمة كلها.

ومن هنا كانت الطمأنينة ثمرة اتساع لا ثمرة ضيق. الغافل ضيق لأنه محكوم بما يراه. والذاكر واسع لأنه يعلم أن ما لا يراه داخل في علم الله. الغافل أسير اللحظة. والذاكر موصول بالوعد. الغافل يفسر المنع حرمانًا دائمًا. والذاكر ينتظر ما يفتحه الله من أبواب الحكمة.

وهذا لا يعني أن الذاكر يعرف الحكمة التفصيلية في كل شيء؛ فقد تبقى الحكمة غيبًا عنه. لكنه يعرف ما هو أعظم من معرفة التفاصيل: يعرف أن الله حكيم رحيم عليم، وأنه ليس كمثله شيء، وأن أفعاله لا تخرج عن علمٍ وحكمةٍ وعدلٍ ورحمة. وهذا القدر من المعرفة يكفي القلب ليصبر ولو لم يفهم كل تفصيل. فليس شرط الطمأنينة أن تعرف لماذا وقع كل شيء، بل أن تعرف من ربك الذي وقع كل شيء بعلمه وتحت سلطانه.

وهنا يظهر التسبيح بوصفه أحد أعظم أذكار اليقظة. فحين يقول العبد: **سبحان الله،** فهو لا يردد لفظًا فقط، بل ينزه الله عن كل ظنٍّ لا يليق به. ينزهه عن العبث، وعن الظلم، وعن الغفلة، وعن أن تضيع عنده دمعة أو صبر أو دعاء. ولهذا يكون التسبيح ضروريًا في لحظات الغموض؛ لأن النفس إذا لم تنزّه ربها حين لا تفهم، أوشكت أن تفسر الغموض تفسيرًا فاسدًا. التسبيح حراسةٌ للعقيدة في العتمة.

ولذلك كان نداء يونس عليه السلام في الظلمات جامعًا للتوحيد والتنزيه والاعتراف:

﴿**لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ الأنبياء: ٨٧

في الظلمة لا يبدأ العبد باتهام القدر، بل بالتوحيد: **لا إله إلا أنت**. ولا يفسر البلاء بسوء ظن، بل بالتنزيه: **سبحانك**. ولا يجعل نفسه بريئًا من كل نقص، بل يعترف: **إني كنت من الظالمين**. هذه هي يقظة الذكر في أشد مواضع الضيق. إنه يعيد ترتيب الموقف كله: الله واحد، الله منزه، وأنا عبدٌ محتاجٌ إلى العفو والنجاة.

ثم قال الله: ﴿**فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ الأنبياء: ٨٨

النجاة هنا ليست حدثًا تاريخيًا مغلقًا، بل قاعدة ممتدة: **وكذلك ننجي المؤمنين**. وليس معنى ذلك أن كل ذاكرٍ ينجو من كل ابتلاء بالصورة التي يتخيلها، بل أن الذكر الصادق باب نجاةٍ من الغم، ومن اليأس، ومن سوء الظن، ومن

الانقطاع عن الله، ثم يفتح الله بعد ذلك من صور الفرج ما يشاء بحكمته. قد يخرج العبد من بطن الحوت، وقد يثبت داخله حتى يحين الفرج، وقد تتحول المحنة نفسها إلى باب اصطفاء. المهم أنه لا يبقى وحيدًا في الظلمة إذا كان ذاكرًا.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الذكر هو الوعي الذي يرفض الظلمة الكاملة. قد تكون حولك ظلمات، لكن الذكر يمنعها من أن تصير تفسيرك الوحيد. قد تكون في ضيق، لكن الذكر يمنع الضيق من أن يدّعي أنه الحقيقة كلها. قد تكون في فقد، لكن الذكر يمنع الفقد من أن يمحو معنى البقاء لله والرجوع إليه. قد تكون في خوف، لكن الذكر يمنع الخوف من أن يصبح ربًا في قلبك.

وهذا هو معنى الطمأنينة: ليس زوال كل ظلمة، بل وجود نورٍ لا تسمح له الظلمة أن ينطفئ.

ومن لطائف الذكر أنه يعيد ضبط علاقة الإنسان بالمستقبل. المستقبل من أكبر مصادر القلق؛ لأنه مساحة غيبية يحاول الإنسان أن يملأها بالتوقعات، وأكثر توقعاته يصنعها الخوف. فيعيش المصيبة قبل وقوعها، ويحمل أثقالًا لم تأتِ، ويستنفد طاقته في احتمالاتٍ قد لا تحدث. هنا يأتي الذكر ليقول له: المستقبل ليس لك، ولا لقلقك، بل لله. خذ بالأسباب، لكن لا تسكن في غدٍ لم يخلقه الله لك بعد.

ولهذا كان من عظمة قول: **إن شاء الله** أنه يربّي الوعي على حدود الإنسان. قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ الكهف: ٢٣-٢٤

هذه الآية ليست مجرد أدب في الكلام عن المستقبل، بل تربية كبرى على أن الغد ليس ملكًا للإنسان. **إني فاعل ذلك غدًا** إذا قيلت بمعزل عن المشيئة، تحمل غرورًا خفيًا: كأن الغد مضمون، والعافية مضمونة، والقدرة مضمونة، والظروف مضمونة. فجاء الاستثناء: **إلا أن يشاء الله**. ثم جاء العلاج عند النسيان: **واذكر ربك إذا نسيت**. كأن نسيان المشيئة نسيانٌ لمركز الحقيقة، وذكر الله يعيد الإنسان إلى تواضعه الوجودي.

وهذا الذكر يحرر الإنسان من قلق السيطرة على المستقبل. لا يعني أن يترك التخطيط، بل أن يخطط بقلبٍ يعلم أن فوق تخطيطه مشيئة الله. ولا يعني أن يهمل العمل، بل أن يعمل دون أن يتوهم أن العمل وحده يضمن النتائج. ولا يعني أن لا يحلم، بل أن يحلم وهو يعلم أن الخير فيما اختاره الله. هذا الوعي لا يضعف الإنسان، بل يخفف عنه عبء الألوهية الكاذبة؛ عبء أن يتصرف كأنه مالك الغد.

ومن هنا نرى أن الذكر يحرر الإنسان من ثلاثة أوهام كبرى: وهم السيطرة على الماضي، ووهم السيطرة على الحاضر، ووهم السيطرة على المستقبل.
الماضي يعالجه الاستغفار والحمد والاعتبار.
والحاضر يعالجه التوكل والذكر والعمل.
والمستقبل تعالجه المشيئة والرجاء وحسن الظن بالله.

فلا يبقى الإنسان سجينًا لما فات، ولا مذعورًا مما هو آت، ولا ضائعًا في ضغط اللحظة. إن الذكر يضع الزمن كله في سياقه الإيماني: ما مضى فبابه التوبة والشكر، وما حضر فبابه العمل والذكر، وما يأتي فبابه التوكل والدعاء.

ولهذا كان الدعاء من الذكر، بل من أعظمه. فالدعاء ليس طلبًا للحاجات فقط، بل يقظة فقر. حين يدعو العبد، فهو يعترف ضمنًا أنه ليس مكتفيًا، وأن وراء الأسباب ربًا يسمع، وأن قلبه لا ينبغي أن يغلق على يأسه. قال الله تعالى: **﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** غافر: ٦٠

العجيب أن الآية جعلت ترك الدعاء استكبارًا. لماذا؟ لأن الذي لا يدعو قد يكون في باطنه مستغنيًا، أو يائسًا، أو غافلًا عن باب الله. أما الداعي فقد انكسر فيه وهم الاكتفاء. وهذا الانكسار ليس ضعفًا مذمومًا، بل يقظة عبودية. ولذلك كان الدعاء يوقظ الإنسان من تخديرٍ آخر أخطر من تخدير الوهم: تخدير الاعتماد على النفس وحدها.

ومن هنا فإن الذكر والدعاء يجعلان الإنسان أكثر واقعية، لا أقل؛ لأنهما يعرّفانه بحدوده. الواقعية الحقيقية ليست أن ترى الأسباب فقط، بل أن ترى حدود الأسباب أيضًا. وليست أن تعترف بالقوة المادية فقط، بل أن تعترف بأن القوة كلها لله. وليست أن تقرأ الوقائع منفصلة، بل أن تراها في ملك الله. أما الواقعية التي تلغي الله من الوعي، فهي ليست واقعية كاملة، بل عورٌ معرفيٌّ كبير؛ ترى القريب وتعمى عن الأعلى، ترى السبب وتنسى المسبب، ترى الحدث وتغفل عن الحكمة.

ومن هنا تكون الطمأنينة الإيمانية أعلى درجات اليقظة؛ لأنها يقظةٌ بالله، لا يقظةٌ بالأسباب وحدها. إنها وعيٌ لا يسقط الغيب من الحساب، ولا الآخرة من المعنى، ولا أسماء الله من تفسير الحياة. فالذاكر حين يقول: **يا لطيف**، لا يخترع لطفًا من خياله، بل يستحضر اسمًا من أسماء الله وآثارًا من تدبيره. وحين يقول: **يا رحيم**، لا يصنع رحمةً نفسيةً مجردة، بل يرجو رحمة الرب. وحين يقول: **يا حي يا قيوم**، لا يهدئ نفسه بصوتٍ جميل فقط، بل يستند إلى حقيقة أن الله حيٌّ لا يموت، قيومٌ تقوم به السماوات والأرض.

وهنا ينبغي أن نحذر من تحويل الذكر إلى تقنية نفسية مجردة. نعم، للذكر أثرٌ عميقٌ في النفس، وقد يهدئ الجسد، ويضبط الانفعال، ويمنح انتظامًا داخليًا، لكن حقيقته أعظم من ذلك. ليس الذكر مجرد تمرين استرخاء، بل عبادة. وليس مجرد تردد صوتي، بل صلة. وليس مجرد إعادة برمجة للذات، بل رجوع إلى الله. وإذا اختُزل الذكر في أثره النفسي فقط، فقد فُقد أعظم ما فيه: أنه عبودية لله قبل أن يكون راحةً للإنسان.

فالطمأنينة في الذكر ثمرة، وليست معبودًا. نحن لا نذكر الله فقط لنرتاح، بل نذكره لأنه ربنا المستحق للذكر والشكر والحمد والتعظيم. ثم من رحمته أن جعل في ذكره حياةً وطمأنينةً ونورًا. ومن جعل الطمأنينة غايته النهائية قد يضيق إذا لم يجد أثرًا سريعًا. أما من جعل الله مقصده، ثبت في الذكر ولو تأخر شعوره بالراحة؛ لأنه يعلم أن الذكر عبادة قبل أن يكون إحساسًا.

وهذا فرقٌ تربوي مهم. قد يذكر الإنسان الله في بعض الأيام فلا يجد اللذة التي كان يجدها، ولا السكينة التي اعتادها. فإن كان يعبد الشعور، ترك الذكر. وإن

كان يعبد الله، ثبت. والذكر في الجفاف قد يكون أعظم تربيةً من الذكر في اللذة؛ لأن العبد حينها يصدق في أنه لا يطلب مجرد حالٍ نفسي، بل يطلب وجه الله ورضاه. ثم قد يفتح الله له بعد الصبر من السكينة ما لم يكن يحسب.

ومن هنا نفهم أن الذكر نفسه ابتلاءٌ أحيانًا: هل تذكر الله لأنه الله، أم لأنك تريد أثرًا عاجلًا فقط؟ هل تثبت إذا غابت اللذة؟ هل تداوم إذا ثقل اللسان؟ هل ترجع إذا شرد القلب؟ إن المداومة على الذكر في حالات الفتور من أشرف دلائل الصدق؛ لأن العبد لا يكون دائمًا في حال إشراق، ولكنه يستطيع أن يبقى على الباب.

وقد قال النبي ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**». وهذا الحديث يؤسس لقانونٍ عظيم في بناء القلب. العمل الدائم القليل قد يصنع من العمق ما لا تصنعه الاندفاعات العارضة. فالذكر لا يبني القلب غالبًا بالومضات النادرة، بل بالمداومة الهادئة: ورد صباح، ورد مساء، استغفار، تسبيح، صلاة على النبي ﷺ، دعاء، تلاوة، حضور في الصلاة، رجوع عند الذنب، ذكر عند النعمة، استرجاع عند المصيبة. هذه الأنهار الصغيرة إذا اجتمعت صنعت في القلب مجرى لا تجف ماؤه بسهولة.

والطمأنينة التي تأتي من المداومة طمأنينة متجذرة، لا انفعال طارئ. إنها تشبه شجرةً تسقى كل يوم حتى تمد جذورها في الأرض؛ فإذا جاءت الريح لم تسقط سريعًا. أما من لا يذكر إلا عند الصدمة، فقد يجد أثرًا، لكن قلبه يحتاج إلى بناء سابق حتى يقاوم العواصف الكبرى. ولهذا كان الذكر اليومي ليس ترفًا روحيًا، بل استعدادًا للبلاء قبل نزوله.

ومن عظمة التربية النبوية أنها جعلت للمؤمن أذكارًا في بدايات الأشياء ونهاياتها: عند الصباح والمساء، عند النوم والاستيقاظ، عند الدخول والخروج، عند الطعام والفراغ منه، عند الركوب، عند الخوف، عند المرض، عند المصيبة، عند رؤية ما يحب وما يكره. كأن السنة تريد أن لا تترك لحظة الإنسان بلا صلة، وأن لا تبقى الحركة اليومية عاريةً من المعنى. فالحياة كلها يمكن أن تتحول إلى مجال ذكر، لا بمعنى الانفصال عن العمل، بل بمعنى إضاءته.

وهذه الإضاءة هي اليقظة. أن تأكل فتذكر المنعم. أن تخرج فتستعيذ وتتوكل. أن تنام فتسلّم نفسك لله. أن تستيقظ فتحمد الذي أحياك بعد موتك الصغير. أن ترى نعمةً فتقول: الحمد لله. أن تقع في ذنب فتقول: أستغفر الله. أن تخاف فتقول: حسبي الله. أن تضيق فتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. أن تنكسر فتقول: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.

بهذا لا يعود الذكر لحظةً منفصلةً عن الحياة، بل يصبح وعيًا مصاحبًا لها. وكلما صاحب الذكر تفاصيل اليوم، قلّت قدرة الغفلة على احتلاله. فالإنسان لا يسقط دفعةً واحدة غالبًا، بل يتدرج في الغفلة؛ ينسى قليلًا، ثم يعتاد النسيان، ثم يعيش بلا رجوع، ثم يصير العالم كله حاضرًا في قلبه إلا الله. والذكر المتكرر يقطع هذا المسار؛ يوقظه كل مرة قبل أن يستغرق.

ومن هنا يكون الذاكر أقدر على رؤية نفسه بصدق. فالذكر لا يكشف له اللهَ بمعنى الإحاطة، فالله لا يحيط به شيء من خلقه، ولكنه يكشف له فقره هو، وغفلته، وحاجته، ونعمة الله عليه. وهذا الكشف بداية الإصلاح. أما الغافل

فقد يعيش عمرًا طويلًا يظن أنه بخير لأنه لم يسمع صوت قلبه. الذكر يجعله يسمع؛ يسمع اضطرابه، ويسمع حاجته، ويسمع نداء الرجوع. قد يكون هذا السماع مؤلمًا في البداية، لكنه ألم يقظة لا ألم ضياع.

وبهذا المعنى فإن الذكر لا يخدر الجرح، بل يطهّره. والتطهير قد يؤلم، لكنه يهيئ للشفاء. أما التخدير فيسكت الألم ويترك الفساد في العمق. من ذكر الله بصدق قد يواجه ذنوبه أكثر، لا أقل. قد يرى هشاشته أكثر، لا أقل. قد يبكي على ما فرط، لا لأنه ازداد ضعفًا، بل لأنه صار أكثر حياة. وهذا هو الفرق بين الذكر الصادق والتسكين الزائف.

إن الذكر الصادق يجعل القلب حيًا؛ والقلب الحي يتألم من البعد، ويفرح بالقرب، ويخاف من الغفلة، ويرجو الرحمة، ويستحي من النعمة. أما القلب المخدر فلا يشعر بشيء. ومن هنا كان الذكر يقظةً حتى حين يبكي صاحبه؛ لأن بكاءه علامة حياة، لا علامة هزيمة.

وفي نهاية هذا الفصل نستطيع أن نقرر:

الطمأنينة التي يصنعها الذكر ليست انسحابًا من الواقع، بل استعلاءً عليه بالحق؛ ليست إلغاءً للألم، بل منعه من أن يصير إلهًا؛ ليست تعطيلًا للعقل، بل توسيعًا لأفقه بالغيب والوحي؛ ليست تخديرًا، بل أعلى درجات اليقظة، لأن الذاكر يرى الواقع ومعه الله، ويرى الدنيا ومعها الآخرة، ويرى السبب ومعه مسبب الأسباب، ويرى ضعفه ومعه باب الاستعانة.

وهكذا تنكشف آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ من وجهٍ آخر:
اذكروني لا لتغيبوا عن الحياة، بل لتروها على حقيقتها.
اذكروني لا لتتخدر قلوبكم، بل لتستيقظ من سلطان الوهم.
اذكروني أذكركم بفضلٍ ورحمةٍ وهداية، فتخرجوا من ضيق التفسير البشري العاجل إلى سعة المعنى الإلهي الذي يجعل القلب ثابتًا ولو اضطربت الأرض من حوله.

فالذاكر ليس من نسي الواقع.
بل هو من تذكر الحقيقة التي ينساها الواقع حين يُقرأ بلا وحي:
أن الله أكبر، وأن رحمته أوسع، وأن تدبيره ألطف، وأن الرجوع إليه، وأن القلب لا يطمئن إلا إذا عاد إلى ربه.

الفَصْلُ السَّادِس

القَلْبُ لَا يَبْقَى فَارِغًا: تَحْرِيرُ المَسَاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنِ احْتِلَالِ العَالَم

من أخطر الأوهام التي يعيشها الإنسان أن يظن قلبه فراغًا محايدًا، يستطيع أن يتركه بلا حراسة، وبلا ذكر، وبلا توجيه، ثم يبقى كما هو، صافيًا ساكنًا مستقرًا. والحقيقة أن القلب لا يعرف الفراغ طويلًا؛ إن لم يعمره ذكر الله عمرته المخاوف، وإن لم يسكنه اليقين سكنته الظنون، وإن لم تُرتَّب فيه الدنيا في موضعها الصحيح صارت هي المركز والقبلة والميزان. القلب أرضٌ مفتوحة؛ إما أن تُزرع فيها معاني الإيمان، أو تنبت فيها أعشاب القلق والرغبة والحسد والغفلة من غير استئذان.

ولهذا لا يكون الذكر مجرد إضافةٍ جميلةٍ إلى الداخل، بل يكون حمايةً له من الاحتلال. والعالم لا يحتل القلب دائمًا بالقهر الظاهر، بل يدخل إليه أحيانًا من أبوابٍ دقيقة: خبرٌ متكرر، صورةٌ عابرة، مقارنةٌ جارحة، رغبةٌ لا تهدأ، خوفٌ من مستقبل، ذكرى قديمة، كلمةٌ قاسية، مدحٌ يفتن، ذمٌّ يكسر، نجاحٌ يغر، فشلٌ يثقل، حتى يجد الإنسان نفسه ممتلئًا بكل شيء إلا بما يطمئنه، حاضرًا مع كل شيء إلا مع ربه.

ومن هنا نفهم عمق قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾ الكهف: ٢٨

هذه الآية ترسم ثلاثيةً خطيرة في انهيار الداخل: **غفلة القلب عن ذكر الله**، ثم **اتباع الهوى**، ثم **انفراط الأمر**. وكأن القلب إذا غفل لم يبقَ ساكنًا في حيادٍ طيب، بل انتقل إلى سلطان الهوى، وإذا تبع الهوى انفلت نظام الحياة: **وكان أمره فرطًا**؛ أي متبددًا ضائعًا خارج الانضباط والهداية. فالغفلة ليست فراغًا، بل بداية امتلاءٍ فاسد. والهوى لا يدخل القلب غالبًا إلا حين يجد فيه مساحةً غير محروسة بالذكر.

تأمل دقة التعبير: ﴿**أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾. لم يقل: أغفلنا لسانه فقط، لأن القضية أعمق من ترك العبارة؛ إنها غفلة القلب، أي غياب المركز الذي يضبط المعاني. قد يكون اللسان متكلمًا، والعقل مشغولًا، والجسد متحركًا، لكن القلب غافل؛ فإذا غفل القلب، صار الهوى أكثر قدرةً على القيادة، وصارت التفاصيل كلها قابلةً للانفلات.

ومن أعجب ما في الآية أنها تربط بين الغفلة وفساد الاتباع. فالإنسان لا يتبع هواه لأنه يحب الهوى فقط، بل لأنه فقد ذكرًا أعلى يردعه ويهديه. إذا غاب ذكر الله، لم يعد في الداخل سلطانٌ كافٍ يقول للرغبة: قفي عند حدك، ولا للخوف: لا تتضخم، ولا للغضب: لا تطغَ، ولا للذة: ليست كل مرغوبةٍ مباحة، ولا للحزن: لا تقنط. يصبح القلب ساحةً بلا حاكمٍ رشيد، فتتنازعها القوى الصغيرة.

ولهذا كان الذكر تحريرًا للمساحة الداخلية. إنه لا يطرد الدنيا من الحياة، ولكنه يطردها من مقام الربوبية النفسية. لا يمنع الإنسان من أن يعمل، ويحب، ويتملك، ويحزن، ويفرح، ويخطط، لكنه يمنع هذه الأشياء من أن تستولي

على العرش الداخلي. إن الفرق بين قلبٍ يعيش في الدنيا وقلبٍ تحتله الدنيا فرقٌ دقيقٌ وعظيم: الأول يتعامل مع الأشياء في حدودها، والثاني يسمح لها أن تحدد قيمته ومصيره وطمأنينته.

وقد قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾ المنافقون: ٩

الآية لا تذم المال ولا الولد في ذاتهما؛ فالمال نعمة إذا شُكر، والولد نعمة ومسؤولية، ولكنها تحذر من **الإلهاء**. والإلهاء ليس مجرد الانشغال، بل انشغالٌ يقطع القلب عن ذكر الله، ويجعل النعمة نفسها حجابًا عن المنعم. وهذا من أخطر امتحانات الحياة: أن يتحول ما أعطاك الله إياه إلى ما يشغلك عن الله. أن تصير النعمة مزاحمةً للذاكر، لا بابًا للشكر. أن يملأ المال والولد والقربى والمكانة كل المساحة الداخلية، فلا يبقى لله في وعي العبد إلا الهامش.

ثم تختم الآية بحكمٍ شديد: ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾. والخسارة هنا ليست خسارة مال، فقد يكون المال حاضرًا، والولد حاضرًا، والصورة الاجتماعية حاضرة، ولكن القلب خاسر؛ لأنه استبدل المركز بالهامش، وجعل الوسائل غايات، وسمح لما كان ينبغي أن يعينه على الشكر أن يسرقه من الذكر.

وهنا ندرك أن الذكر ليس عبادةً منعزلةً عن امتحان النعم، بل هو الحارس الذي يمنع النعم من أن تتحول إلى فتنة. فمن ذكر الله في ماله، لم يرَ المال إلهًا، بل أمانة. ومن ذكر الله في ولده، لم يجعله صنمًا عاطفيًا، بل نعمةً ومسؤولية. ومن ذكر الله في نجاحه، لم يغتر. ومن ذكر الله في جمال حياته،

لم ينسَ زوالها. فالذكر لا يحرم القلب من حب النعم، لكنه يطهّر حبها من الاستعباد.

ومن هنا كان القرآن دقيقًا حين قال: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ**﴾ النور: ٣٧

لم يقل: رجالٌ لا يتاجرون ولا يبيعون، بل قال: **لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**. وهذه هي الدقة القرآنية: ليست المشكلة في الحضور في السوق، بل في أن يسكن السوق القلب. ليست المشكلة في حركة اليد، بل في غفلة القلب. فالرجال الذين مدحهم القرآن يعيشون في الدنيا، يعملون، يبيعون، يشترون، يتعاملون مع الأسباب، لكن التجارة لا تبتلعهم. في داخلهم مركزٌ أعلى من الربح والخسارة، وساعةٌ موقوتةٌ على الآخرة، وخوفٌ من يومٍ تتقلب فيه القلوب والأبصار.

تأمل قوله: ﴿**يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ**﴾.
هذا الخوف الأخروي هو الذي يحميهم من الانغماس. حين يكون يوم القيامة حاضرًا في الوعي، لا تستطيع التجارة أن تتحول إلى معبود. وحين يكون ذكر الله حاضرًا، لا تستطيع المكاسب أن تختطف كل المعنى. إن الذاكر لا يترك الدنيا، لكنه يحمل في قلبه ما يمنع الدنيا من أن تبتلعه.

ومن هنا يظهر أن الذكر تحريرٌ للإنسان من الاحتلال الناعم. فالدنيا لا تأتي دائمًا بوجهٍ قبيح؛ قد تأتي بنعمة، بفرح، ببيت، بعمل، بمحبة، بمكانة، بجمال، وبذلك تكون فتنتها أشد؛ لأن القلب لا ينتبه إلى الاحتلال حين يأتي في صورة

محبوبة. والذكر وحده يربّي البصيرة على رؤية الحد الفاصل بين الانتفاع بالنعمة والعبودية لها.

ولذلك كان من أعظم ما يتعلمه المؤمن أن يقول عند النعمة: **الحمد لله.** الحمد هنا ليس عبارة مجاملة دينية، بل إعلانٌ أن النعمة لم تغلق القلب على ذاتها، بل ردته إلى المنعم. وكأن الحمد يفتح نافذةً في النعمة ليرى القلب من خلالها فضل الله. أما الغافل فيقف عند الشيء، والذاكر يعبر من الشيء إلى من أعطاه. الغافل يرى الطعام وينسى الرازق، يرى العافية وينسى المعافي، يرى النجاح وينسى الموفق، يرى النجاة وينسى اللطيف. أما الذاكر، فكل نعمة عنده جسرٌ إلى الله.

وهذا المعنى ظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿**فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ الأعراف: ٦٩

ذكر الآلاء ليس مجرد تعدادٍ للنعم، بل منعٌ للنفس من التعود عليها حتى تصير كأنها حقٌّ مكتسب. فالإنسان إذا اعتاد النعمة نسي دهشتها، وإذا نسي دهشتها ضعف شكره، وإذا ضعف شكره بدأ يراها جزءًا من العادي، فإذا فقدها اعترض كأنه سُلب شيئًا كان مضمونًا له. أما ذكر النعم فيجدد الدهشة، ويعيد القلب إلى مقام الشكر، ويمنع الإلف من أن يقتل البصيرة.

ولهذا فإن الذكر لا يحرر القلب من المخاوف فقط، بل يحرره من البلادة تجاه النعم. فالبلادة نوعٌ من الاحتلال أيضًا؛ حين تصير عطايا الله مألوفةً إلى حدّ الجحود الشعوري. كم من نعمةٍ لا نشعر بها إلا إذا فُقدت. وكم من فضلٍ يحيط بنا فلا نذكره لأن عيوننا محبوسةٌ عند ما ينقصنا. فالذكر يردّ العين إلى

الاتساع؛ يعلّمها أن ترى ما بقي، لا ما فات فقط؛ ما أُعطي، لا ما مُنع فقط؛ ما سُتر، لا ما انكشف فقط.

ومن هنا كانت الغفلة سببًا في تضخم الحرمان. الغافل لا يرى إلا الفجوة، أما الذاكر فيرى الفجوة داخل بحرٍ من النعم. الغافل لا يرى إلا الباب المغلق، أما الذاكر فيرى أبوابًا كثيرةً ما زالت مفتوحة. الغافل يقول: لماذا حُرمت هذا؟ والذاكر قد يقول ذلك بألمٍ بشري، لكنه لا ينسى أن يقول معه: وكم أعطيتني يا رب مما لا أحسن عده.

وهنا يتصل الذكر بالرضا دون أن يتحول إلى بلادة. الرضا ليس أن لا تطلب، ولا أن لا تتألم، ولا أن لا تسعى، بل أن يبقى قلبك مؤدبًا مع الله في طلبه وألمه وسعيه. والذكر هو الذي يحفظ هذا الأدب؛ لأنه يذكرك دائمًا أن ربك أعلم بك منك، وأرحم بك من ظنك، وأن ما عنده لا ينفد، وأن تأخر العطاء قد يكون رحمة، وأن حصول المطلوب قد يكون ابتلاء. فالذكر يمنع الرغبة من أن تتحول إلى اعتراض، ويمنع الطلب من أن يتحول إلى استحقاقٍ متكبر.

ومن أعمق صور احتلال العالم للقلب احتلال الناس. والناس قد يدخلون القلب من أبوابٍ كثيرة: حبهم، خوفهم، مدحهم، ذمهم، مقارنتهم، انتظار رضاهم، الحذر من حكمهم، الرغبة في التفوق عليهم، الخوف من سقوط المنزلة بينهم. فإذا لم يكن القلب معمورًا بذكر الله، صار الناس فيه أكبر من موضعهم، وصارت كلماتهم أشبه بالأقدار، ونظراتهم أشبه بالموازين النهائية.

وهنا يأتي الذكر ليعيد الناس إلى حجمهم. لا يلغي محبتهم، ولا حقهم، ولا أثرهم، ولكنه يمنعهم من أن يصيروا مصدر القيمة العليا. قال الله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ**﴾ المائدة: ٤٤

هذه الآية لا تلغي الخوف الطبيعي من الأذى، لكنها تعالج الخشية التي تسقط أمامها الأمانة. حين يكون الناس أكبر في القلب من الله، يبيع الإنسان الحق ليرضيهم، أو يسكت عن الواجب خوفًا منهم، أو يبدل قناعاته ليبقى مقبولًا في عيونهم. أما ذكر الله، فإنه يوقظ خشيةً أعلى تضبط خشية الناس. من ذكر الله حقًا، لم يعد الناس قادرين على احتلال مقام الحكم النهائي في قلبه.

وفي الحديث المشهور في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**».

هذا الحديث بناءٌ عظيم لتحرير القلب من احتلال الخلق. لا يقول لك: لا تتعامل مع الناس، ولا تطلب منهم ما جرت به العادة، ولا تحذر من ضررهم المشروع؛ لكنه يقول لك: لا تجعلهم أربابًا في داخلك. نفعهم محكوم بقدر الله، وضرهم محكوم بقدر الله. فلا تذل لهم ذل العبودية، ولا تخف منهم خوفًا يقطعك عن الله، ولا تجعل رضاهم أعلى من رضا الله. إن القلب إذا استقر فيه هذا المعنى صار أوسع، لأن أكبر سجنٍ داخلي يخرج منه الإنسان هو سجن نظر الناس.

والذكر هو الطريق العملي إلى هذا التحرر. فحين تكثر من قول: **حسبي الله ونعم الوكيل،** لا تعود وحيدًا أمام أحكام الناس. وحين تقول: **لا حول ولا قوة إلا بالله،** لا ترى قوتهم مطلقة. وحين تقول: **الله أكبر،** تصغر في قلبك سطوة البشر. وحين تقول: **اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين،** تتحرر حتى من غرورك بنفسك. وهكذا لا يبقى في القلب سلطانٌ مطلقٌ إلا لله.

ومن صور احتلال العالم للقلب أيضًا احتلال الماضي. قد تسكن الإنسان ذكرى قديمة حتى تصير وطنًا مظلمًا؛ ذنبٌ لا يفارقه، خذلانٌ لا يبرأ منه، خسارةٌ لا يستطيع تجاوزها، كلمةٌ قيلت له منذ سنوات وما زالت تحكم شعوره بذاته. وإذا لم يدخل الذكر هذه المنطقة، بقي الماضي ربًا قاسيًا في الداخل، يعيد تعريف الإنسان كل يوم بما وقع، لا بما يمكن أن يفتحه الله.

والاستغفار من أعظم أذكار تحرير القلب من الماضي. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ الزمر: ٥٣

هذه الآية لا تنكر الذنب، ولا تهون من المعصية، لكنها تمنع الماضي من أن يتحول إلى قدرٍ نهائي يغلق باب الرجوع. **لا تقنطوا؛** لأن القنوط شكلٌ من أشكال احتلال الذنب للقلب. قد يذنب العبد، ثم يتوب، لكن الشيطان يريد للذنب أن يبقى مركز هويته: أنت ذنبك، أنت سقوطك، أنت ماضيك. فيأتي الذكر والاستغفار ليقول: أنت عبدٌ مذنبٌ له ربٌ غفورٌ رحيم، وباب التوبة أوسع من ذنبك إذا صدقت في الرجوع.

وهذا تحرير عظيم. فالاستغفار لا يمحو الذنب من الصحيفة فقط إذا قبله الله، بل يحرر القلب من عبودية الذنب نفسيًا. يجعلك تتذكر الخطأ لتتوب، لا لتنهار؛ لتتواضع، لا لتقنط؛ لتصلح، لا لتدفن نفسك في العار. فالذكر يضع الماضي في موضعه الصحيح: موضع توبةٍ وعبرةٍ وشكرٍ على الستر، لا موضع إقامةٍ دائمةٍ في الظلام.

وكذلك يحتل المستقبل القلب حين يغيب الذكر. المستقبل غيب، والإنسان إذا لم يربطه بالله ملأه بالمخاوف. يعيش احتمالاتٍ لم تقع، ويتعب من مصائب متخيلة، ويصير قلقه كأنه نبوءة داخلية لا تنقطع. وهنا يأتي ذكر التوكل والمشيئة ليحرر القلب من عبودية الغد. قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ**﴾ الطلاق: ٣

هذه الآية لا تعني أن يترك الإنسان الأسباب، بل أن لا يجعل قلبه عبدًا للنتائج. **فهو حسبه**؛ أي كافيه بما يليق بحكمته ورحمته. والكفاية الإلهية لا تُقاس دائمًا بما يتصوره العبد من صورة واحدة للنجاة؛ فقد يكفيه الله بتيسير مطلوبه، أو بصرف ما يضره، أو بتثبيته، أو بفتح بابٍ لم يكن في حسابه، أو بتربيته على صبرٍ يرفعه. المهم أن قلبه لا يبقى وحيدًا أمام المستقبل؛ لقد جعل له وكيلًا، ومن كان الله وكيله لم يكن المستقبل ربًا يرعبه.

والذكر هنا يعمل كقطعٍ لسلسلة التخيلات المخيفة. كلما قال القلب: ماذا لو؟ أجابه الذكر: الله وكيل. كلما قال القلق: ربما يحدث كذا، قال التوكل: لن يحدث إلا ما شاء الله. كلما قال الخوف: أنت لا تملك الغد، قال الإيمان: نعم، ولذلك أتوكل على من يملكه. وهذا ليس تخديرًا، بل إعادة المستقبل إلى مالكه.

ومن صور احتلال العالم للقلب احتلال الرغبة. قد لا يكون الإنسان خائفًا، بل راغبًا؛ يريد شيئًا بشدة حتى يصير هذا الشيء مركز دعائه وتفكيره وغضبه ورضاه. فإذا حصل عليه فرح فرحًا يخرجه عن التوازن، وإذا مُنعه انهار كأنه فقد معنى الحياة. والذكر يعلّم الرغبة الأدب؛ أن تطلب ولا تتعبد للمطلوب، أن تحب ولا تؤله المحبوب، أن تسعى ولا تجعل الشيء المطلوب مصدر الحياة النهائي.

ولهذا كان قول النبي ﷺ في دعائه: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**» من أعظم ما يحرر القلب. الدنيا قد تكون همًا مشروعًا في حدودها: رزق، بيت، عافية، أهل، عمل. لكن الخطر أن تصير **أكبر الهم**، وأن تصير **مبلغ العلم**؛ أي أن يقف وعي الإنسان عند حدودها، فلا يرى أبعد منها ولا أعلى منها. والذكر يفتح السقف المغلق؛ يذكرك أن الدنيا ليست كل شيء، وأن ما عند الله خير وأبقى، وأن الآخرة هي دار القرار.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿**وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ**﴾ آل عمران: ١٨٥

وقوله سبحانه: ﴿**وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ**﴾ الأعلى: ١٧

ذكر الآخرة ليس تشاؤمًا، بل تحريرٌ من تضخم الدنيا. حين ينسى الإنسان الآخرة، تكبر الدنيا حتى تخنقه. يصير كل فواتٍ فيها كارثةً نهائية، وكل مكسبٍ فيها فتحًا مطلقًا، وكل ألمٍ فيها نهاية المعنى. أما حين يذكر الآخرة، تعود الدنيا إلى حجمها: مهمةٌ لأنها مزرعة، لكنها ليست دار القرار؛ مؤلمةٌ

أحيانًا، لكن ألمها ليس أبديًا؛ جميلةٌ أحيانًا، لكن جمالها ليس نهائيًا؛ مطلوبةٌ بقدر، لا معبودةٌ بإطلاق.

والذكر هو الذي يبقي الآخرة حاضرة في القلب، لا بوصفها فكرةً بعيدة، بل معيارًا حيًا. ولذلك كان من أعظم فساد القلب أن يحضر كل شيء فيه إلا الآخرة. يحضر الرزق، والناس، والصورة، والخطط، والأحلام، والمخاوف، ولا يحضر القبر، ولا الحساب، ولا لقاء الله، ولا الجنة، ولا النار. هذا غيابٌ مدمّر، لأن القلب إذا لم يذكر المصير تاه في الطريق.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ الإنسان: ٢٧

العاجلة تحتل القلب لأنها قريبة، محسوسة، صاخبة. واليوم الثقيل يُترك وراء الظهر لأنه غيب مؤجل. والذكر يعاكس هذا الانجراف؛ يجعل الغيب حاضرًا، والآخرة فاعلةً في القرار، واليوم الثقيل حاضرًا في ضمير العبد قبل أن يأتي. وهذا الحضور لا يفسد الحياة، بل ينقذها من العبث. من ذكر الآخرة عمل للدنيا بميزان، ولم يظلم لأجلها، ولم يبع دينه بها، ولم يجعلها أكبر من حقيقتها.

ومن أعظم ما يحرر القلب من احتلال العالم أن يتذكر العبد أن كل ما في الدنيا فانٍ. قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ**﴾ الرحمن: ٢٦-٢٧

هذه الآية ليست لإدخال الحزن على القلب، بل لإخراجه من عبودية الزائل. حين تعلم أن كل من عليها فان، لا تعطي الفاني حق الباقي. تحب، لكنك لا

تؤله. تفرح، لكنك لا تغتر. تحزن، لكنك لا تقنط. تمتلك، لكنك لا تنسى الزوال. تعمل، لكنك لا تنسى المصير. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام؛ أي يبقى الله سبحانه، ويبقى ما أريد به وجهه الكريم. فكل ما اتصل بالله بقي معناه، وكل ما انقطع عنه تلاشى ولو طال حضوره.

وهذه الآية تضع القلب أمام ميزانٍ حاسم: ما الذي يستحق أن يحتل داخلك؟ أشيءٌ فانٍ، أم الباقي سبحانه؟ أمدحٌ يزول، أم رضوان الله؟ أمالٌ يفنى، أم عملٌ صالح؟ أصورةٌ في أعين الناس، أم صدقٌ عند الله؟ وهذا السؤال نفسه ذكر. إنه يوقظ القلب من سكرة العاجل.

ومن هنا كان الذكر تحريرًا للمساحة الداخلية بمعنى شامل:
يحررها من خوف الناس بالخشية من الله.
ويحررها من عبودية المال بالحمد والزكاة والشكر.
ويحررها من الماضي بالاستغفار.
ويحررها من المستقبل بالتوكل.
ويحررها من الرغبة بالدعاء والاستخارة والرضا.
ويحررها من تضخم الدنيا بذكر الآخرة.
ويحررها من الفوضى بالصلاة والورد والمداومة.

والقلب المحرر لا يعني القلب الخالي من الهموم، بل القلب الذي لا تحكمه الهموم. ولا يعني القلب الذي لا يحب الدنيا، بل الذي لا يعبدها. ولا يعني القلب الذي لا يتأثر بالناس، بل الذي لا يجعلهم آلهةً في داخله. ولا يعني القلب

الذي لا يتذكر الماضي، بل الذي لا يسكنه بوصفه سجنًا. ولا يعني القلب الذي لا يفكر في المستقبل، بل الذي لا يسمح للمستقبل أن يسرق حاضره وإيمانه.

ومن لطائف القرآن أنه سمّى الوحي ذكرًا في مواضع كثيرة، كقوله تعالى:

﴿**وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ**﴾ الأنبياء: ٥٠

فالقرآن نفسه ذكرٌ مبارك، لأنه لا يذكّرك بكلمةٍ مفردة فقط، بل يعيد بناء الذاكرة الكاملة للإنسان: من أنت؟ من ربك؟ لماذا خُلقت؟ إلى أين تمضي؟ ما حقيقة الدنيا؟ ما معنى البلاء؟ ما مصير الظالمين؟ ما عاقبة المتقين؟ كيف تنجو؟ كيف تهلك؟ ما الذي يبقى؟ ما الذي يفنى؟ فإذا هجر الإنسان القرآن، هجر أعظم الذكر، ثم استغرب أن تمتلئ ذاكرته بما يشتته ويضعفه.

والقرآن لا يدخل القلب دون أثر إذا أُقبل عليه بصدق. إنه يزاحم الروايات الفاسدة عن الحياة، ويعيد تعريف الخوف والرجاء، ويقلب المقاييس، ويطرد كثيرًا من أوهام الداخل. كل آيةٍ صادقة الفهم والعمل كأنها تسترد مساحةً من القلب كانت محتلة. آيةٌ تردك إلى التوكل، وآيةٌ تردك إلى الصبر، وآيةٌ تكشف لك غرور الدنيا، وآيةٌ تفتح لك باب الرحمة، وآيةٌ تريك عاقبة الكبر، وآيةٌ تداوي وحشة الفقد، وآيةٌ تذكرك بالجنة، وآيةٌ تهزك بالنار، وآيةٌ تعلمك أن الله لا يظلم مثقال ذرة.

ولهذا لا ينبغي أن يكون الذكر مقطوعًا عن القرآن. الأذكار النبوية تحفظ اليوم، والقرآن يعيد تشكيل الرؤية الكبرى. ومن جمع بينهما جمع بين النبعين: وردٌ يحرس اللحظة، ووحيٌ يبني المعنى. وكلما امتلأ القلب بالقرآن والذكر،

ضاقت المساحة المتاحة لاحتلال العالم. لا لأن الإنسان صار ملاكًا لا يتأثر، بل لأن قلبه صار ذا مناعةٍ أعلى، يعرف ما يسمح له بالدخول، وما يرده، وما يضعه في موضعه.

وفي الحديث الصحيح: «**مثل البيت الذي يُذكر الله فيه والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت**».
وهذا الحديث في ظاهره عن البيوت، ولكنه يكشف قانونًا للقلب كذلك. البيت الذي يذكر الله فيه حي؛ لأن فيه صلةً ونورًا ومعنى. والبيت الذي يخلو من الذكر ميتٌ ولو كثرت فيه الأصوات والأثاث والحركة. وكذلك القلب؛ قد يكون مزدحمًا بالأفكار والاهتمامات، لكنه ميت المعنى إذا خلا من ذكر الله. وقد يكون بسيط الحياة، لكنه حيٌّ بذكر ربه.

ولعل من أعظم ما نحتاجه في زمن الامتلاء الخارجي أن نعيد إلى بيوتنا وقلوبنا معنى الحياة بالذكر. ليست الحياة أن يكون المكان ممتلئًا بالأجهزة والأصوات والصور، بل أن يكون فيه نصيبٌ من ذكر الله. وليست حياة القلب أن يلاحق كل جديد، بل أن يبقى فيه قديمٌ أبديٌّ لا يتغير: **لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، أستغفر الله، لا حول ولا قوة إلا بالله**.

هذه الكلمات ليست قليلة. إنها حراسةٌ للداخل. إنها تمنع العالم من أن يأخذ كل شيء. إنها تقول للقلب كل يوم: لستَ مخزنًا لفوضى الأرض، بل موضعٌ ينبغي أن يعمره ذكر الله. لستَ شاشةً مفتوحةً لكل صورة، بل سريرةٌ ستُعرض على الله. لستَ سوقًا لكل رغبة، بل موضع عبودية. لستَ ساحةً لكل خوف، بل محل يقين ورجاء.

ومن هنا نصل إلى حقيقة هذا الفصل:

القلب لا يبقى فارغًا؛ فإن لم يعمره ذكر الله، عمرته الدنيا على هيئة خوفٍ أو رغبةٍ أو غفلةٍ أو مقارنةٍ أو سخط. والذكر ليس مجرد ملءٍ للقلب، بل تحريرٌ له؛ يطرد منه ما لا يستحق السيادة، ويعيد إليه مركزه، ويمنح الأشياء أحجامها، حتى يعيش الإنسان في العالم دون أن يسمح للعالم أن يعيش فيه على هيئة احتلال.

وهكذا تنكشف آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ من وجهٍ جديد:
اذكروني حتى لا تبتلعكم الأشياء.
اذكروني حتى لا تسكن قلوبكم المخاوف بدل اليقين، والرغبات بدل العبودية، والناس بدل الحق، والدنيا بدل الآخرة.
اذكروني أذكركم بفضلٍ يحرركم من عبودية ما سواي، ويجعل قلوبكم أوسع من العالم، لأنها اتصلت برب العالمين.

فالذكر ليس كلمةً تقال في فراغ.
إنه استردادٌ للقلب من ازدحام الأشياء.
وكل قلبٍ استرده ذكر الله، صار حرًا ولو ضاقت به الدنيا، وصار واسعًا ولو قلّ ما في يده، وصار حيًا ولو لم يسمع ضجيجه أحد.

الفَصْلُ السَّابِع

حِينَ يُعِيدُ الذِّكْرُ تَعْرِيفَ الوَاقِع

ليست أزمة الإنسان دائمًا في الواقع الذي يعيشه، بل في التعريف الذي يحمله لهذا الواقع. فقد يعيش اثنان الحدث نفسه، فيخرج أحدهما منه منطفئًا محطمًا، ويخرج الآخر أكثر بصيرةً ورجوعًا واتساعًا؛ لا لأن الألم عند الثاني أقل بالضرورة، ولا لأن الخسارة أخف، ولكن لأن الواقع لا يدخل القلب عاريًا، بل يدخل من خلال المعنى الذي يلبسه الإنسان له. فإذا كان القلب غافلًا، قرأ الواقع قراءةً مبتورةً، محصورةً في الظاهر القريب، وإذا كان ذاكرًا، قرأ الواقع في ضوء الله، والوحي، والآخرة، والابتلاء، والرحمة، والحكمة، والرجوع.

ومن هنا كان الذكر أعظم من كونه وسيلة طمأنينة؛ إنه **إعادة تعريفٍ للواقع**. والغفلة ليست فقط نسيان لفظٍ أو ترك ورد، بل هي أن يرى الإنسان الدنيا كما لو أنها مكتفية بذاتها، وأن يرى الأسباب كأنها مستقلة، وأن يرى الخلق كأنهم يملكون المصير، وأن يرى اللحظة كأنها النهاية، وأن يرى الألم كأنه عبث، وأن يرى الفقد كأنه محوٌ نهائي للمعنى. فإذا ذكر الله، لم تتغير الأشياء في الخارج دائمًا، ولكن تتغير أسماؤها في الداخل: المصيبة تصير ابتلاء، والمنع قد يصير لطفًا، والتأخر قد يصير تربية، والضيق قد يصير بابًا، والضعف قد يصير دعاء، والغربة قد تصير أُنسًا بالله، والفقد قد يصير تذكيرًا بالبقاء لله والرجوع إليه.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ**﴾ العنكبوت: ٦٤

هذه الآية لا تحتقر الوجود، ولا تلغي مسؤولية الإنسان في الدنيا، ولا تدعو إلى الانسحاب من العمل والعمران، لكنها تعيد تعريف الدنيا في مقابل الآخرة. الدنيا ليست العدم، لكنها ليست الحقيقة النهائية. ليست بلا قيمة، لكنها لا تملك قيمةً مستقلةً إذا انقطعت عن الله والآخرة. إنها دار ممر وابتلاء، لا دار قرار واكتمال. أما الآخرة فهي **الحيوان**؛ أي الحياة الكاملة الباقية التي لا يعتريها فناء الدنيا ولا نقصها ولا اضطرابها.

فإذا غاب هذا التعريف القرآني، كبرت الدنيا في القلب حتى بدت كأنها كل شيء. عندها يصبح كل فواتٍ فيها موتًا صغيرًا، وكل خسارةٍ فيها نهايةً كبرى، وكل تأخرٍ فيها إلغاءً للقيمة، وكل ألمٍ فيها عبثًا لا تفسير له. أما إذا حضر ذكر الله والدار الآخرة، عادت الدنيا إلى حجمها الصحيح: دارٌ خطيرة لأنها مزرعة المصير، لكنها لا تستحق أن تُعبد؛ جميلةٌ في مواضع، لكنها لا تكفي القلب؛ مؤلمةٌ في مواضع، لكن ألمها ليس خاتمة الوجود.

ومن هنا نفهم لماذا كان ذكر الآخرة من أعظم أنواع الذكر، وإن لم يكن دائمًا على هيئة تسبيحٍ وتحميدٍ مباشر؛ لأنه يبدل معنى الحاضر كله. من ذكر الآخرة لم تعد الدنيا سجنه النهائي. ومن ذكر الحساب لم يعد ظلم الناس بلا جواب. ومن ذكر الجنة لم يعد الحرمان العابر نهاية الرجاء. ومن ذكر النار لم تعد اللذة المحرمة مكسبًا ذكيًا. ومن ذكر لقاء الله لم يعد العمر مجرد استهلاكٍ للسنوات.

فالذكر يعيد تعريف الزمن. الغافل يرى الزمن مساحةً للامتلاك والسباق واللذة والقلق، أما الذاكر فيراه أمانةً وفرصةً وابتلاءً ورحلةً إلى الله. ولهذا قال النبي ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**. هذا الحديث ليس دعوة إلى كراهية الحياة، بل إلى تصحيح الإقامة النفسية فيها. الغريب يستعمل المكان ولا ينسى وطنه، وعابر السبيل ينتفع بالطريق ولا يبني قلبه كله عليه. كذلك المؤمن: يعمل في الدنيا، يحب ما أباح الله، يعمر، يسعى، يزرع، يتعلم، يكتب، يربي، لكنه لا ينسى أنه راحل، وأن ما في يده سيُسأل عنه، وأن الطريق ليس هو الغاية.

وإذا اختل هذا التعريف، وقع القلب في أحد مرضين: إما أن يغرق في الدنيا كأنها باقية، أو يزهد فيها زهدًا فاسدًا يعطل الأمانة. أما الذكر فيصنع الميزان: الدنيا ليست معبودًا ولا مهملة؛ ليست غايةً ولا عبثًا؛ ليست مقام الخلود ولا موضعًا بلا مسؤولية. إنها دار عملٍ في ضوء دار البقاء.

وهذا المعنى هو الذي يجعل الذكر يعيد تعريف النجاح والفشل. في التصور الغافل، النجاح هو ما ظهر للناس: مال، منصب، شهرة، سلطة، اتساع، غلبة، حضور. والفشل هو ما خالف ذلك: فقر، خفاء، تأخر، ضعف، قلة، انكسار. أما القرآن فيعيد بناء الميزان من أصله. قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ**﴾ آل عمران: ١٨٥

تأمل قوله: ﴿**فَقَدْ فَازَ**﴾. هنا يحدد القرآن الفوز الحقيقي: الزحزحة عن النار، ودخول الجنة. كل فوزٍ آخر ناقصٌ إن لم يؤدِّ إلى هذا الفوز، وكل خسارةٍ

أخرى محتملةٌ إن لم تسلب هذا المصير. هذا التعريف يحرر القلب من استبداد المقاييس الأرضية. قد يملك الإنسان الدنيا ويفشل في الآخرة، فأي فوزٍ هذا؟ وقد يفوته كثيرٌ من الدنيا ويفوز برضوان الله، فأي خسارةٍ هذه؟

الذكر يجعل هذا الميزان حاضرًا. فإذا قال العبد: **لا إله إلا الله**، تذكر أن أعظم نجاحه أن يلقى الله على التوحيد. وإذا قال: **أستغفر الله**، تذكر أن أخطر فشلٍ ليس أن يخسر صفقةً أو مكانة، بل أن يلقى الله مصرًا على ذنب. وإذا قال: **اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار**، أعاد ترتيب طموحه كله، فلم تعد الدنيا سقف أحلامه، بل صارت وسيلةً في طريق النجاة.

ولهذا كان الذكر علاجًا لهلع المقارنة. الإنسان إذا فقد تعريف الفوز القرآني، صار يقيس نفسه بالناس في كل شيء: ماذا بلغوا؟ ماذا امتلكوا؟ كيف ظهروا؟ كم صفق لهم؟ كم سبقوه؟ فتتحول الحياة إلى سباقٍ خانقٍ نحو سراب. أما إذا حضر ذكر الآخرة، اختلف السؤال: ليس من سبقني إلى الدنيا؟ بل من سبق إلى الله؟ ليس من صار أعلى في عيون الناس؟ بل من صار أتقى عند الله؟ ليس من كثر ماله؟ بل من طاب قلبه وعمله ومآله؟

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ**﴾ الحجرات: ١٣

هذه الآية وحدها تكفي لهدم ممالك الوهم في النفس. الكرامة الحقيقية ليست بالجنس، ولا النسب، ولا المال، ولا الجاه، ولا الصورة، ولا التصفيق، بل بالتقوى. والذكر هو غذاء التقوى؛ لأنه يجعل الله حاضرًا في المراقبة، ويجعل العبد أقل استعدادًا لأن يبيع قلبه للناس. فإذا غاب الذكر، عاد الإنسان إلى مقاييس الجاهلية القديمة بثياب حديثة: كرامتي بما أملك، بما أظهر، بما يقال

عني، بما أقدر عليه. فإذا ذكر، عاد إلى ميزان الوحي: كرامتي عند الله بتقواي.

ومن هنا يعيد الذكر تعريف القوة. الغافل يرى القوة في السيطرة، والبطش، والقدرة على الإخضاع، وكثرة الأنصار، وامتلاك الأدوات. أما القرآن فيكشف أن القوة الحقيقية لا تنفصل عن الله، وأن الإنسان قد يملك أسباب القوة الظاهرة ثم يكون في غاية الضعف إذا انقطع عن ربه. قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ البقرة: ١٦٥

وقال سبحانه: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**﴾ آل عمران: ١٢٦

هاتان الآيتان لا تلغيان إعداد القوة، ولا الأخذ بأسباب النصر، ولكنهما تمنعان القلب من أن يرى القوة مستقلةً عن الله. ولذلك كان قول: **لا حول ولا قوة إلا بالله** من أعظم الأذكار؛ لأنه يعيد القوة إلى مصدرها. ليس معنى ذلك أن يجلس الإنسان عاجزًا، بل أن يعمل وهو يعلم أن قوته نفسها عطية، وأن تحول الأحوال ليس بيده استقلالًا، وأن النصر لا يصنعه السبب وحده إذا لم يأذن الله.

وهذا التعريف يحمي الإنسان من الغرور إذا قوي، ومن اليأس إذا ضعف. إذا قوي قال: القوة لله، فلا أطغى. وإذا ضعف قال: القوة لله، فلا أيأس. أما الغافل فإذا قوي طغى، وإذا ضعف انهار؛ لأنه لا يرى إلا نفسه وأسبابه. والذاكر يرى فوق ذلك ربًا عزيزًا حكيمًا، يعطي ويمنع، يرفع ويخفض، ينصر من يشاء بحكمته، ويمتحن من يشاء بعدله ورحمته.

وكذلك يعيد الذكر تعريف الرزق. الغافل يرى الرزق في يد السوق، والناس، والوظيفة، والفرصة، والظرف السياسي، والمنافسة، حتى يصير قلبه معلقًا بهذه الأبواب تعلقًا مذلًا. أما الذاكر فيأخذ بالأسباب، لكنه يعلم أن الرزق من الله. قال تعالى: ﴿**وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ الذاريات: ٢٢-٢٣

هذا القسم العظيم يعالج خوفًا عميقًا في الإنسان: خوف الرزق. كأن القلب لا يصدق بسهولة أن رزقه مقدر، وأن الله لا ينساه، وأن السعي سببٌ مأمورٌ به لا ربٌّ معبود. فجاء القسم: **فورب السماء والأرض إنه لحق**. والذكر يحيي هذا اليقين في القلب. كلما قال العبد: **يا رزاق، حسبي الله، لا حول ولا قوة إلا بالله،** عاد الرزق من كونه كابوسًا يطارده إلى كونه باب ابتلاءٍ وسعيٍ وتوكل.

وليس معنى هذا أن لا يقلق الإنسان بطبعه، فالخوف على المعاش وارد، ولكن الذكر يمنع هذا الخوف من أن يتحول إلى عبودية. فكم من إنسانٍ باع دينه لأنه ظن أن رزقه في يد مخلوق، وكم من قلبٍ ذلّ لغير الله لأنه نسي أن الخلق أسباب، وأن الرازق هو الله. فإذا رسخ الذكر، صار العبد أكرم؛ يطلب رزقه، لكنه لا يريق كرامة عبوديته على أعتاب الخلق.

ويعيد الذكر تعريف الفقر والغنى. قال النبي ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**».

هذا الحديث لا ينفي أثر المال في الحياة، ولا يزهد الناس في الكفاية المشروعة، لكنه يكشف أن الغنى الأعمق ليس كمية ما تملك، بل حال قلبك تجاه ما تملك وما لا تملك. قد يكون الإنسان كثير المال فقير النفس؛ لا

يشبع، لا يطمئن، لا يهدأ، يخاف الفقد، ويحسد الزيادة عند غيره. وقد يكون أقل مالًا، لكن في قلبه غنىً بالتوكل والرضا والقناعة.

والذكر هو الذي يصنع غنى النفس؛ لأن القلب إذا امتلأ بالله لم يعد كل نقصٍ دنيويٍّ كارثةً وجودية. لا يعني هذا أن الفقر سهل، ولا أن الحاجة لا تؤلم، بل يعني أن الذاكر لا يجعل المال وحده مصدر الشعور بالقيمة والأمان. يقول: **الحمد لله** على ما أعطي، و **اللهم اكفني بحلالك عن حرامك** فيما يحتاج، و **حسبنا الله** إذا ضاقت الأبواب، و **لا حول ولا قوة إلا بالله** إذا شعر بالعجز. وهكذا لا يصبح الفقر هو التعريف النهائي له، ولا الغنى هو الضمان النهائي له.

ومن أعظم ما يعيد الذكر تعريفه: المصيبة. فالغافل يرى المصيبة انقطاعًا، أما الذاكر يراها ابتلاءً داخل علم الله. والغافل يسأل: لماذا أنا؟ والذاكر قد يتوجع ويسأل ربه الفرج، لكنه يعلم أن السؤال الأعلى: كيف أعبد الله في هذا الموضع؟ كيف أصبر؟ كيف أستغفر؟ كيف أتعلم؟ كيف لا أفقد حسن الظن؟ كيف لا أجعل البلاء قاطعًا بيني وبين الله؟

قال تعالى: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ التغابن: ١١

هذه الآية لا تفسر المصيبة تفسيرًا سطحيًا، بل تضعها في سلطان الله: **إلا بإذن الله**. ثم تذكر ثمرة الإيمان: **يهد قلبه**. لاحظ أن الهداية هنا للقلب في قلب المصيبة. قد لا تزول المصيبة فورًا، لكن القلب يُهدى: إلى الصبر، إلى

الرضا، إلى الدعاء، إلى التوبة، إلى رؤية الحكمة بقدر ما يفتح الله، أو إلى التسليم حين لا تنكشف الحكمة. وهذه الهداية القلبية من أعظم صور اللطف.

الذكر هنا ليس أن يقال للمتألم: لا تتألم. بل أن يقال له: لا تترك قلبك بلا هداية وسط الألم. المصيبة إذا دخلت قلبًا غافلًا عبثت به، وإذا دخلت قلبًا ذاكرًا وجد فيها بابًا إلى الله. قد تبكي العين، لكن القلب يقول: **إنا لله وإنا إليه راجعون**. وقد يضيق الصدر، لكن اللسان يقول: **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**. وقد لا يفهم العبد، لكنه يقول: **سبحانك**، فيصون اعتقاده من سوء الظن.

وبهذا يعيد الذكر تعريف الألم. الألم في ميزان الغفلة مجرد نقصٍ في اللذة أو انكسارٍ في الإرادة. أما في ميزان الإيمان فقد يكون تطهيرًا، ورفعًا، وتعليمًا، وردًا إلى الله، وكشفًا لحقيقة النفس، وتذكيرًا بالآخرة. وهذا لا يعني أن نبحث عن الألم أو نتمنى البلاء، فقد كان النبي ﷺ يسأل الله العافية، ولكن إذا وقع البلاء لم نقرأه قراءةً عدمية. نطلب الفرج، نعم، وندفع الضر بما شرع الله، نعم، ولكننا لا نسمح للألم أن يقول لنا: لا معنى. فالذكر يجيبه: بل المعنى عند الله، والعبد مأمور بالصبر والرجوع.

ومن هنا نرى كيف يعيد الذكر تعريف الوحدة. الغافل إذا خلا من الناس شعر بالفراغ الكامل؛ لأن وجوده مستمدٌ من انعكاسه في عيونهم. أما الذاكر فقد يستوحش بطبعه من فقد الأحبة، لكنه لا يكون وحيدًا تمامًا؛ لأن في قلبه بابًا إلى الله. قال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ الحديد: ٤

هذه المعية تليق بجلال الله، وهي معية علمٍ وإحاطةٍ وسمعٍ وبصرٍ وتدبير، ومع المؤمنين معية نصرٍ وتأييدٍ ورحمةٍ بحسب ما يليق بالله. فإذا ذكرها العبد، لم يعد المكان الخالي خاليًا بالمعنى المرعب؛ لأن الله لا يغيب عنه، ولا يخفى عليه حاله، ولا تضيع عنده أنفاسه. وليس هذا تشبيهًا لمعنى القرب البشري، تعالى الله عن ذلك، بل إيمانٌ بأن العبد في علم الله وسمعه وبصره ورحمته، وأنه ليس مهملًا في هذا الكون.

ولهذا كان الدعاء في الخلوة من أعظم ما يداوي وحشة الإنسان. فالناس قد لا يفهمون، وقد لا يسمعون، وقد يسمعون ولا يقدرون، أما الله فيعلم السر وأخفى. فإذا قال العبد في خلوته: يا رب، فقد خرج من عزلة المعنى، ولو بقي وحده في المكان. وليس كل اجتماعٍ بالناس أنسًا، وليس كل خلوةٍ وحشة. الأنس الحقيقي أن يكون القلب موصولًا بالله، والوحشة الحقيقية أن يكون بين الناس وقلبه غافلٌ عن الله.

ويعيد الذكر تعريف الكلام نفسه. في الغفلة يصبح الكلام وسيلةً للظهور، والانتصار، والفضول، واللغو، وإثبات الذات. أما إذا حضر الذكر، صار الكلام أمانة. قال الله تعالى: **﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** ق: ١٨

هذه الآية إذا استقرت في قلب الذاكر، تغير لسانه. يعلم أن الكلمة لا تتبخر، وأن القول ليس خفيفًا كما يتصور الناس. فالذكر يجعل الإنسان يزن كلامه: هل يرضي الله؟ هل هو حق؟ هل هو نافع؟ هل فيه ظلم؟ هل فيه كبر؟ هل فيه إيذاء؟ ولهذا كان من تمام الذكر أن لا يذكر اللسان الله ثم يغتاب خلقه، أو

يسب، أو يكذب، أو يظلم. الذكر الحقيقي يطهّر اللسان كله، لا لحظة التسبيح فقط.

قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**». هذا الحديث يربط الكلام بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ أي يعيد تعريف اللسان من كونه أداةً شخصيةً إلى كونه مسؤوليةً أخروية. والذكر يربي هذا المعنى عمليًا. كلما اعتاد اللسان ذكر الله استحيا أن يكون أداةً لما يسخط الله. وكلما غفل، سهل عليه أن يصير خادمًا للهوى.

ويعيد الذكر تعريف العمل. في الغفلة يعمل الإنسان طلبًا للظهور أو المكسب أو الانتصار الذاتي فقط، فإذا لم يرَ النتيجة انهار أو حقد أو ترك الخير. أما الذاكر فيعمل لله، ويأخذ بالأسباب، ويرجو القبول، ويعلم أن ما كان لله لا يضيع ولو لم يره الناس. قال تعالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ المزمل: ٢٠

هذه الآية تعيد تعريف العمل الصالح: ليس ما يصفق له الناس فقط هو الموجود، بل ما تجده عند الله. قد تنسى الناس معروفك، وقد يجحدون فضلك، وقد لا يظهر عملك، لكن ما كان لله محفوظٌ عند الله. والذاكر يستمد طاقته من هذا اليقين. لا يعمل بلا حاجةٍ إلى أثر، فالإنسان يحب أن يرى الخير، ولكن لا يجعل رؤية الناس للأثر شرطًا للاستمرار. يكفيه أن الله يعلم.

وهذا المعنى يحرر العاملين لله من فتنة الإحباط. كم من عملٍ صالحٍ تركه صاحبه لأنه لم يجد تقديرًا، وكم من كلمة حقٍ خمدت لأن الناس لم يصفقوا، وكم من معروفٍ انقطع لأن الجحود آلم صاحبه. والذكر يعيد القلب إلى النية

الأولى: لمن عملت؟ فإن كان لله، فالله لا يضيع أجر المحسنين. أما إذا كان العمل للناس، فسيبقى القلب تحت رحمة الناس.

ومن هنا يعيد الذكر تعريف الخفاء. الغافل يرى الخفاء نقصًا، والظهور حياة. أما الذاكر فيعلم أن الخفاء قد يكون سترًا ورحمةً وإخلاصًا. قال النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: **«ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**.

هذا مشهدٌ عجيب: رجلٌ لا يراه أحد، ولا يسمع بكاءه أحد، ولا يكتب عنه الناس، لكنه في ميزان الله عظيم. ذكر الله خاليًا، ففاضت عيناه. الخفاء هنا ليس عدمًا، بل مقام صدق. والذكر في الخلوة يعيد تعريف القيمة: ليست القيمة أن تُرى دائمًا، بل أن تصدق ولو لم تُرَ.

وفي زمنٍ يربّي الإنسان على عرض كل شيء، يصير هذا الحديث ثورةً هادئة: أجمل لحظاتك قد تكون التي لا يعرفها أحد. أصدق دموعك قد تكون التي لا تدخل في ذاكرة الناس. وأرفع أعمالك قد تكون ما خبأه الله لك لأنك لم تعرضه على الخلق. وهذا لا يعني احتقار العمل الظاهر، فالشعائر ظاهرة، والتعليم ظاهر، والدعوة ظاهرة، ولكن القلب يحتاج إلى خبيئة ذكرٍ تحفظه من عبودية المشهد.

ويعيد الذكر تعريف الخسارة. الغافل يرى الخسارة في فوات الدنيا، أما الذاكر فيسمع قول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ**﴾ الزمر: ١٥

الخسران المبين ليس أن تخسر شيئًا من الدنيا، مع أن خسائر الدنيا تؤلم، بل أن تخسر نفسك في الآخرة. هذا التعريف لا يلغي وجع الخسارات الصغيرة، لكنه يمنعها من أن تصير مطلقة. فإذا فاتك مال، تذكرت أن أعظم الخسارة أن يفوتك رضا الله. وإذا فاتتك مكانة، تذكرت أن أعظم السقوط أن تسقط من مقام التقوى. وإذا خذلك إنسان، تذكرت أن أعظم الخذلان أن يتركك الله إلى نفسك. وهكذا يردّ الذكر كل خسارةٍ إلى الميزان الأكبر.

ومن هنا يعيد الذكر تعريف الرجاء. الرجاء في الغفلة تعلقٌ أعمى بما نريد، أما الرجاء في الذكر تعلقٌ بالله فيما يعلم أنه خير. قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ الأعراف: ١٥٦

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ يوسف: ٨٧

الذاكر لا يرجو لأنه يضمن الصورة التي يريدها، بل لأنه يعرف سعة رحمة الله. لا ييأس لأن الباب قد يتأخر، ولا لأن الطريق قد يضيق، ولا لأن البشر عجزوا، بل يبقى في قلبه علمٌ بأن الله أوسع من حساباته. وهذا الرجاء لا يمنعه من العمل، بل يدفعه؛ لأن الرجاء الصادق عمل، لا تمنيًا فارغًا. ومن ذكر الله بأسمائه الحسنى اتسع رجاؤه: الرحمن، الرحيم، اللطيف، الكريم، الوهاب، الفتاح. كل اسمٍ يفتح نافذةً في جدار الضيق.

ويعيد الذكر تعريف الخوف أيضًا. ليس الخوف كله مذمومًا؛ الخوف من الله حياة، والخوف الطبيعي من الضرر جزءٌ من الفطرة، لكن الخوف إذا انفصل عن الذكر صار وحشًا داخليًا. أما إذا دخل في نور الذكر، تهذب. قال تعالى: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ آل عمران: ١٧٥

الخوف من الله لا يزيد القلب رعبًا مرضيًا، بل يحرره من مخاوف أدنى. من خاف الله حقًا لم يخف الخلق خوفًا يبيع به الحق. ومن استحضر عظمة الله صغرت في قلبه العظائم الزائفة. ولهذا كان ذكر الله جامعًا بين الخوف والرجاء؛ حتى لا يتحول الخوف إلى يأس، ولا الرجاء إلى أمنٍ مغرور. القلب الذاكر يمشي بين جناحين: يخاف تقصيره، ويرجو رحمة ربه.

ومن أعمق ما يعيد الذكر تعريفه: الذات نفسها. الغافل يقول: أنا ما أملك، أو أنا ما أنجزت، أو أنا ما فشلت، أو أنا ما يقوله الناس عني. أما الذكر يقول للإنسان: أنت عبد الله. وهذه الكلمة لو استقرت، حررت الإنسان من تعريفات كثيرة ظالمة. لستَ ذنبك فقط، وإن كنت مسؤولًا عنه. ولستَ فشلك فقط، وإن كان عليك أن تتعلم منه. ولستَ مدح الناس، ولا ذمهم، ولا مالك، ولا صورتك، ولا جرحك. أنت عبدٌ لله، مكرمٌ بالتكليف، مفتوحٌ لك باب التوبة، مدعوٌّ إلى الذكر، موعودٌ بفضل الله إذا صدقت.

وهذا التعريف هو الذي يجعل آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ آيةً مؤسسةً لهوية الإنسان. فحين يذكر العبد ربه، لا يحصل فقط على أجرٍ منفصل، بل يستعيد تعريفه الصحيح. إنه مذكورٌ عند الله بفضله، لا منسيٌّ في عبث الوجود. إنه عبدٌ له رب، لا ذرةٌ تائهة في كونٍ أعمى. إنه صاحب طريقٍ ومصير، لا مجرد كائنٍ يستهلك أيامًا ثم ينطفئ بلا معنى.

ومن هنا يمكن القول إن الذكر يبدل أسماء الأشياء في القلب:
الدنيا تصبح مزرعةً لا معبودًا.
الألم يصبح ابتلاءً لا عبثًا.

الرزق يصبح أمانةً لا مصدر ذل.
الناس يصبحون أسبابًا لا أربابًا.
الماضي يصبح موضع توبةٍ لا سجنًا.
المستقبل يصبح غيبًا في يد الله لا وحشًا مطلقًا.
النجاح يصبح شكرًا لا غرورًا.
الفشل يصبح درسًا لا إلغاءً للذات.
الخلوة تصبح بابًا إلى الله لا وحشةً مطلقة.
والقلب يصبح موضع ذكرٍ لا مخزنًا لفوضى العالم.

وهذه ليست تسميات شعرية، بل حقائق إيمانية. فالإنسان لا يعيش بالأحداث وحدها، بل يعيش بتفسيره للأحداث. والوحي جاء ليصحح التفسير، والذكر هو الذي يبقي هذا التصحيح حيًا في القلب. قد يعرف الإنسان هذه المعاني في لحظة صفاء، ثم ينسى عند الضغط، ولهذا احتاج إلى الذكر المتكرر؛ لأن الواقع يضغط بتعريفاته كل يوم، والذكر يعيد التعريف كل يوم.

العالم يقول لك: قيمتك فيما تظهر.
والذكر يقول: قيمتك في صدقك مع الله.

العالم يقول: الخسارة أن يفوتك نصيبك من الدنيا.
والذكر يقول: الخسارة أن تفوتك النجاة.

العالم يقول: القوة أن تملك.
والذكر يقول: القوة أن لا يملكك ما تملك.

العالم يقول: الناس هم الميزان.
والذكر يقول: الله أعلم بمن اتقى.

العالم يقول: المستقبل مصدر رعب.
والذكر يقول: المستقبل في يد الله.

العالم يقول: الماضي لا يغفر.
والذكر يقول: **إن الله يغفر الذنوب جميعًا** لمن تاب ورجع.

العالم يقول: الوحدة فراغ.
والذكر يقول: الخلوة قد تكون باب أنسٍ بالله.

العالم يقول: الألم نهاية.
والذكر يقول: الألم قد يكون طريقًا إلى الله.

وهكذا لا يهرب الذاكر من الواقع، بل ينتزع الواقع من تفسير الغفلة، ويرده إلى تفسير الوحي. وهذه هي اليقظة الكبرى. فليس كل من رأى الحدث فهمه، وليس كل من امتلك المعلومة أدرك معناها. المعنى لا يُرى إلا بقلبٍ له نور، والذكر من أعظم ما يستنزل هذا النور على القلب.

وفي نهاية هذا الفصل نقول: **الذكر لا يغير الواقع دائمًا بإزالة الحدث، لكنه يغير سلطان الحدث على القلب، ويعيد تعريفه في ضوء الله والآخرة والوحي؛ فإذا تغير التعريف تغيرت الاستجابة، وإذا تغيرت الاستجابة تغير الإنسان، وإذا تغير الإنسان صار الواقع نفسه مجال عبوديةٍ لا سجنًا للغفلة.**

وهكذا يصبح قوله تعالى: ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ وعدًا بإعادة إدخال الإنسان في المعنى.

اذكروني، فلا تسمحوا للدنيا أن تعرّف لكم الحياة وحدها.

اذكروني، فلا تجعلوا الألم يفسر لكم الوجود.

اذكروني، فلا تتركوا الخوف يكتب أسماء الأشياء في قلوبكم.

اذكروني، أذكركم بفضلٍ ورحمةٍ وهداية، فتقرؤون العالم على نور الحق، لا على ظلمة الغفلة.

فالواقع بلا ذكرٍ يضيق حتى يخنق.

والواقع مع ذكر الله يتسع حتى يصير طريقًا إليه.

وما بين الضيق والسعة ليست الأحداث وحدها، بل القلب الذي يذكر، فيرى بنور الله ما لا تراه الغفلة بعينها المرهقة.

الفَصْلُ الثَّامِن

الذَّاكِرُ لَا يَعِيشُ وَحِيدًا: مَعْنَى الأُنْسِ بِاللهِ فِي عَالَمٍ مُوحِش

من أعظم ما يثقل على الإنسان في هذه الحياة شعوره الخفيّ بأنه وحده، لا بمعنى أن لا يكون حوله أحد، فقد يكون محاطًا بالناس، مغمورًا بالأصوات، حاضرًا في المجالس، مشغولًا بالمراسلات، ومع ذلك يحمل في أعماقه وحشةً لا يداويها ازدحام الوجوه، ولا يرفعها كثرة الكلام؛ لأن الوحدة الأشد ليست وحدة الجسد، بل وحدة القلب حين لا يجد من يفهمه على الحقيقة، ولا من يرحمه من الداخل، ولا من يطّلع على خفايا أوجاعه، ولا من يحفظ سره، ولا من يسمع نداءه حين يعجز عن ترتيبه في كلمات.

وهنا يأتي الذكر ليكشف للإنسان أن أعظم الأُنس ليس أن يكثر الناس حوله، بل أن لا يغيب الله عن قلبه. فالإنسان قد يستأنس بالخلق، وهذا من رحمة الله، وقد يطيب له القرب من الأهل والصحب، وهذا من فطرة الحياة، لكن كل أُنسٍ بشري يبقى محدودًا؛ لأن البشر لا يعلمون كل ما فيك، ولا يقدرون على كل ما تحتاج، ولا يبقون معك في كل موضع، ولا يدخلون قبرك، ولا يحملون عنك حسابك، ولا يملكون لقلبك الطمأنينة إلا بقدر ما يجعل الله فيهم من سبب. أما الأنس بالله، فهو أن يعلم القلب أن له ربًا يسمعه إذا دعا، ويعلمه إذا صمت، ويراه إذا اختفى، ويرحمه إذا انكسر، ويقبل توبته إذا رجع، ولا يضيع عنده شيء من خفيّ عمله وصادق دمعه.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ البقرة: ١٨٦

هذه الآية من أرقّ آيات القرآن في باب الصلة بالله؛ لأنها جاءت بغير واسطة في الجواب: ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾. لم يقل: فقل لهم إني قريب، مع أن السؤال جاء بصيغة: **وإذا سألك عبادي عني**، بل جاء الجواب مباشرًا، كأن القرب نفسه ألغى المسافة اللفظية. وهذا القرب يليق بجلال الله، قرب علمٍ وسمعٍ وإجابةٍ ورحمةٍ ولطفٍ بعباده، لا يشبه قرب المخلوقين، ولا يُتصور على هيئةٍ من هيئاتهم، فالله سبحانه **ليس كمثله شيء**.

والآية لا تقول: إني قريب من الأقوياء فقط، ولا من الكاملين فقط، بل تقول: ﴿**عِبَادِي**﴾، ثم تقول: ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾. وكلمة **الداع** هنا واسعة، فيها الفقير، والمذنب التائب، والخائف، والمريض، والمنكسر، والحائر، والذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت. فالذي يدعو لا يحتاج إلى أن يقدّم نفسه في صورةٍ مصقولةٍ أمام الله؛ إنما يأتي بفقره، وانكساره، وصدقه، وحاجته، والله أعلم به من نفسه.

وهذا وحده يكسر عُزلة الإنسان من جذورها. فأنت قد تعجز أن تشرح وجعك للناس، وقد لا تجد من يصبر على سماعك، وقد تخونك العبارة، وقد يُساء فهمك، وقد يضيق الخلق بكثرة شكواك، أما الله فيعلم قبل أن تقول، ويسمع إذا قلت، ويعلم ما وراء القول، وما تحته، وما عجز اللسان عنه. وليس معنى الدعاء أن الله لا يعلم حتى تُخبره، تعالى الله، بل معناه أنك تظهر فقرك وعبوديتك ورجاءك، فتدخل من باب الدعاء إلى مقام الصلة.

ومن هنا كان الذكر باب الأنس؛ لأن الذاكر ليس صامتًا في كونٍ أصم، بل عبدٌ يخاطب ربًا سميعًا قريبًا مجيبًا. حين يقول: يا رب، لا يرسل صوته في فراغ. وحين يقول: سبحان الله، لا يردد كلمةً بلا جهة. وحين يقول: أستغفر الله، لا يجلد نفسه في العتمة، بل يطرق باب الغفور الرحيم. وحين يقول: حسبي الله، لا يخدع قلبه، بل يردّ كفايته إلى من لا يعجزه شيء.

وفي الحديث القدسي الصحيح: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**». هذه الجملة من أعظم ما يملأ قلب الذاكر رجاءً وهيبة. «**وأنا معه إذا ذكرني**»؛ معيةٌ تليق بالله، معية علمٍ ورحمةٍ وتأييدٍ وتوفيق، لا كمعية المخلوق للمخلوق. وهي تكشف أن الذكر ليس فعلاً فرديًا مغلقًا على صاحبه، بل هو صلةٌ يكرم الله بها عبده الذاكر. فالعبد حين يذكر الله لا يصنع الأنس من نفسه وحدها، بل يتعرض لفضل الله ومعيته ورحمته.

ولذلك لا يكون الذاكر وحيدًا تمامًا، وإن خلت غرفته، وإن قلّ أنيسه، وإن ابتعد الناس عنه؛ لأنه يحمل في قلبه بابًا لا يغلقه غياب الخلق. وهذا لا يعني أن المؤمن لا يشعر بالألم من فقد الأحبة أو قلة الرفيق، فالأنبياء والصالحون عرفوا الحزن، ولكن الفرق أن الحزن عند الذاكر لا يتحول إلى قطيعة عن المعنى. يبقى في القلب موضعٌ يقول: الله يعلم، الله يسمع، الله أرحم، الله قريب، الله لا يضيعني إن صدقت في الرجوع إليه.

وتأمل قول موسى عليه السلام حين اشتد الأمر، وقال أصحابُه: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾، فقال: ﴿**كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ الشعراء: ٦٢

هذه ليست عبارة نجاة في موقف تاريخي فحسب، بل هي قانون الأنس في لحظة الانكشاف. البحر أمامه، والعدو خلفه، والناس حوله خائفون، والأسباب في ظاهرها ضيقة، لكنه لم يكن وحيدًا، لأنه كان حاضر القلب بربه: ﴿**إِنَّ مَعِيَ رَبِّي**﴾. لم يقل: معي قوتي، ولا خطتي، ولا كثرتي، بل قال: معي ربي. وهذه المعية، بما يليق بالله، كانت كافيةً لتثبيت القلب قبل أن ينشق البحر.

ما أعظم الفرق بين قلبٍ يرى نفسه بين البحر والعدو وحده، وقلبٍ يرى البحر والعدو، ثم يرى قبل ذلك وبعده أن ربه معه بنصره وهدايته. الأول ينهار لأن المشهد أغلق عليه، والثاني يثبت لأن المشهد لم يغلق على الله. وهذا هو الأنس في الشدة: أن لا تكون وحدك في تفسير اللحظة، وأن لا تكون وحدك في حمل الخوف، وأن لا تكون وحدك أمام الاحتمال المرعب.

ومثل ذلك قوله تعالى في الغار: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾ التوبة: ٤٠

لم يكن الغار واسعًا، ولم يكن الطلب بعيدًا، ولم يكن الخطر موهومًا، ومع ذلك كانت الجملة الجامعة: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾. هذه الآية تكشف أن المكان الضيق قد يتسع بالمعية، وأن اللحظة المخيفة قد تنزل عليها السكينة، وأن قلة الأسباب لا تعني قلة الأمان إذا كان القلب موصولًا بالله. لم تُنفَ حقيقة الخطر، لكن أُضيفت إليها حقيقة أعلى: الله معنا.

وهنا يظهر أن الأنس بالله ليس شعورًا رقيقًا في لحظات الصفاء فقط، بل قوة تثبيت في لحظات الخوف. وقد يكون الإنسان في أعمق الأنس بالله وهو لا يبتسم، بل يبكي؛ لأن الأنس ليس مجرد فرحٍ ظاهر، بل علم القلب أنه لا

يُترك، وأن ربه يسمعه ويراه ويعلمه، وأن ما يمر به ليس خارج علم الله ولا حكمته. قد يكون الذاكر في محنة، لكنه ليس في وحشةٍ كاملة؛ لأن باب الله مفتوح.

ومن أعظم ما يفتح هذا الباب قيام الليل. فالليل بطبيعته موضع خلوة، فإذا دخلته الغفلة صار مسرحًا للقلق والوساوس والأحزان، وإذا دخله الذكر صار محرابًا للأُنس. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ المزمل: ٦

الليل حين يقوم فيه العبد لله ليس مجرد وقتٍ هادئ، بل مقامٌ تتخفف فيه النفس من ضجيج النهار، وتصفو فيه الكلمة، ويقترب القلب من صدقه، وتنخفض سلطة الناس والأعمال، فيبقى العبد وما يحمله بين يدي ربه. ولذلك كان قول الليل **أقوم**؛ لأن القلب في هدأته قد يكون أقدر على أن يصدق، وأقدر على أن يسمع نفسه، وأقدر على أن يحس بمعنى الدعاء والذكر والقرآن.

الذاكر في الليل لا يتكلم ليفرغ القلق فقط، بل ليعرض فقره على الغني الحميد. وحين يقول في خلوته: **يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث**، فهو لا يبحث عن شاهدٍ من الخلق، بل عن رحمةٍ من الخالق. وحين يستغفر في ظلمة الليل، فإن خفاءه عن الناس ليس نقصانًا، بل كمالٌ في الصدق. لقد خرج من سوق الظهور إلى مقام السر، ومن طلب الاعتراف إلى طلب القبول، ومن ضجيج العالم إلى مناجاة الله.

ولهذا كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

هذا الحديث عظيم؛ لأن المشهد كله مخفيّ: رجل، خلوة، ذكر، دمعة. لا جمهور، ولا خطاب، ولا مظهر اجتماعي. ومع ذلك صار هذا المشهد مؤهلًا لظلٍّ يوم القيامة. لماذا؟ لأن الخلوة تكشف صدق الصلة؛ فالعبد لا يبكي هناك ليقال عنه خاشع، ولا يذكر ليُرى، ولا يتزين للناس، بل يواجه حقيقته أمام الله. وهذه الدمعة ليست ضعفًا، بل حياة. قلبٌ ذكر الله خاليًا حتى فاضت عيناه قلبٌ خرج من قسوة الغفلة إلى رقة الحضور.

وفي هذا المعنى علاج عميق لوحشة الإنسان الحديث، الذي صار لا يشعر بوجوده إلا إذا رآه الآخرون. صار يحتاج إلى عينٍ تراقبه، وإعجابٍ يثبته، وتعليقٍ يؤكد قيمته، حتى خاف من الخلوة لأنها تكشف فراغه. أما الذكر فيعلّم الإنسان أن أجمل ما في حياته قد يكون ما لا يعرفه أحد، وأن أصدق لحظاته قد تكون خارج المشهد، وأن قيمته لا تبدأ حين يراه الناس، بل حين يصدق مع الله.

ومن هنا يمكن القول إن الذكر يعلّم القلب أن يعيش حياةً سريةً شريفة، حياةً لا تكون مادةً للعرض، ولا سلعةً في سوق الصورة، ولا مرتبطةً بذاكرة الآخرين. وهذه الحياة السرية ليست انفصالًا عن المجتمع، بل حمايةٌ للروح من الذوبان في الخارج. فالإنسان الذي لا يملك سرًا مع الله فقيرٌ ولو كثر ظهوره، والذي له خبيئة ذكرٍ ودعاءٍ واستغفارٍ أغنى من كثيرٍ ممن امتلأت أسماؤهم في الأرض وفرغت قلوبهم من السماء.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ**﴾ الأعراف: ٥٥

الدعاء خفيةً ليس مجرد خفضٍ للصوت، بل مقامٌ في الأدب. الخفية تحفظ حرارة الصدق، وتصون الدعاء من التصنع، وتعيد العبد إلى ضعفه الحقيقي. والإنسان في الخفاء لا يستطيع أن يخدع نفسه طويلًا؛ هناك تظهر الحاجات الأصلية، لا الحاجات التي يصوغها أمام الناس. هناك قد يقول: يا رب، أصلح قلبي، اغفر ذنبي، ارحم ضعفي، اهدني، لا تكلني إلى نفسي. وهذه أدعية لا تخرج غالبًا من قلبٍ منشغلٍ بالصورة، بل من قلبٍ رأى نفسه على حقيقتها.

والذكر الخفي يداوي وحشةً أخرى: وحشة الذنب. فالذنب يعزل الإنسان؛ يجعله يستثقل نفسه، ويستحي من ربه، وربما يهرب من الصلاة والذكر لأنه يشعر أنه لا يستحق القرب. وهذه من مكايد الشيطان؛ أن يدفع العبد إلى الذنب، ثم يمنعه من الرجوع بحجة الذنب. أما القرآن فيفتح بابًا واسعًا: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ آل عمران: ١٣٥

تأمل بداية العلاج: ﴿**ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ**﴾. لم يذكروا أنفسهم فقط، ولا ذنوبهم فقط، بل ذكروا الله؛ لأن من ذكر الله بعد الذنب تذكر أنه ليس أمام قاضٍ بشريٍّ يغلق الباب، بل أمام ربٍّ يغفر الذنوب، وأن الذنب مهما عظُم لا ينبغي أن يصير حاجزًا عن الاستغفار، بل سببًا للرجوع. ثم قال: ﴿**فَٱسْتَغْفَرُوا۟**﴾؛ فالذكر الصادق يثمر طلب المغفرة، لا مجرد شعورٍ غامض بالندم. ثم قال: ﴿**وَلَمْ يُصِرُّوا۟**﴾؛ لأن الأنس بالله لا يجتمع مع الإقامة المتعمدة على القطيعة.

هذه الآية تنقذ العبد من وحشة المذنب الذي يظن أنه طُرد نهائيًا. إن الرجوع يبدأ بذكر الله. تذكر رحمته، وعلمه، ومغفرته، وشدة عقابه أيضًا، حتى يقوم فيك خوفٌ يردعك ورجاءٌ يعيدك. فالذكر هنا ليس تبريرًا للذنب، بل طريق الخروج منه. ومن أعظم كرامة الله لعبده أن لا يجعله بعد السقوط مقيمًا في العزلة، بل يدعوه إلى الاستغفار.

ولهذا كان الاستغفار من أعظم أذكار الأنس؛ لأنه يردّ العبد إلى ربّه بعد أن باعده الذنب. فإذا قال: **أستغفر الله** بصدق، فكأنه يقول: يا رب، أخطأت، لكني لم أجد بابًا غير بابك؛ ضعفت، لكني لم أقطع رجائي منك؛ ظلمت نفسي، لكني أعلم أنك أنت الغفور الرحيم. وهذه المناجاة وحدها تذيب كثيرًا من قسوة الداخل، لأن الإنسان لا يعود وحيدًا حتى مع خطئه؛ لقد وجد طريق الرجوع.

ومن أعمق وجوه الأنس بالذكر أن العبد حين يذكر الله، يتذكر أن الله لا ينساه. قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ مريم: ٦٤

هذه الآية قصيرة، لكنها عظيمة الأثر في قلب من يشعر أن حياته سقطت من الحساب. ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾: لا ينسى عملًا، ولا دمعةً، ولا صبرًا، ولا دعاءً، ولا ألمًا، ولا ظلمًا وقع عليك، ولا معروفًا صنعته، ولا لحظةً قاومت فيها نفسك ولم يعلم بها أحد. الناس ينسون، والذاكرة البشرية ضعيفة، والفضل بين الناس قد يجحد، والوجع قد لا يُفهم، أما الله فلا ينسى.

وهذا المعنى من أعظم مصادر الأنس؛ لأن كثيرًا من وحشة الإنسان تأتي من شعوره بأن ما يفعله لا يُرى، وما يحتمله لا يُقدّر، وما يمر به لا يعلمه أحد. فإذا علم أن الله لا ينسى، هان عليه كثيرٌ من جحود الخلق. لا بمعنى أن لا

يتألم من الجحود، ولكن بمعنى أن لا ينهار بسببه. يكفيه أن الله يعلم. وهذا ليس شعارًا يقال للتسكين، بل حقيقةٌ إيمانيةٌ تكفي قلبًا عرف ربه.

وفي هذا السياق يتجلى قول الله تعالى: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ طه: ٤٦

قالها الله لموسى وهارون عليهما السلام حين أُرسلا إلى فرعون، ذلك الطاغية الذي قال: **أنا ربكم الأعلى**. والمقام مقام رهبةٍ عظيمة؛ رسولان يذهبان إلى سلطةٍ متجبرة. فجاء التثبيت: ﴿**لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾. أي لستما وحدكما أمام فرعون. إن الله يسمع ويرى، سمعًا وبصرًا يليقان بجلاله، لا يخفى عليه قول فرعون، ولا خوفكما، ولا ما يجري في ذلك المجلس.

هذه الآية تُعلّم الذاكر أن أعظم ما يثبت القلب في مواجهة الطغيان أو الظلم أو الخوف أن يعلم أن الله يسمع ويرى. قد لا يراك الناس، وقد لا ينصفك القريب، وقد لا يملك أحدٌ أن يحميك، لكن الله يسمع ويرى. وليس هذا إذنًا بترك الأسباب أو تعطيل الحكمة، بل هو تثبيتٌ للقلب حتى لا يشعر أنه متروك لقوة البشر وحدها.

ومن هنا كان الذكر يربي في الإنسان شجاعةً هادئة. من استأنس بالله لم يعد يبحث عن الأمان كله في موافقة الناس. ومن علم أن الله يسمع ويرى لم يعد يحتاج إلى أن يشرح نفسه لكل أحد. ومن علم أن الله لا ينسى لم يعد يستميت ليحفظ الناس كل فضله. ومن علم أن الله قريب لم يعد يظن أن ضيق المكان يعني غياب الفرج.

والأنس بالله لا يعني أن يستغني الإنسان عن الأخوة الصالحة أو الصحبة الطيبة، فالقرآن نفسه أمر بالصبر مع أهل الذكر، قال تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ**﴾
الكهف: ٢٨

هذه الآية تكشف أن من رحمة الله بالعبد أن يجعل له صحبةً تعينه على الذكر. الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ليسوا مجرد جماعة اجتماعية، بل بيئة روحية تحفظ القلب من الانجراف. فالوحدة الممدوحة ليست اعتزال الخير، ولا ترك المؤمنين، وإنما أن يكون للقلب استقلاله عن الغفلة، وأن يطلب صحبةً تزيده ذكرًا لا صحبةً تسرقه من الله.

فالذاكر لا يعيش وحيدًا؛ لأنه مع الله بذكره، ومع أهل الذكر بصحبته، ومع القرآن بمناجاته، ومع الصالحين بمحبتهم، ومع الملائكة في مجالس الذكر بما ورد في السنة، ومع آثار الوحي التي تفتح له نوافذ الأنس في كل حال. وهذا الاتساع لا يعرفه من حصر الأنس في الوجود الجسدي للناس فقط.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لا يقعد قومٌ يذكرون الله عز وجل إلا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**».
هذا الحديث يفتح صورةً عظيمة لمجالس الذكر؛ فالذاكرون ليسوا جماعةً صغيرةً في مكانٍ محدود فقط، بل تحفهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، وتنزل عليهم السكينة، ويذكرهم الله فيمن عنده. أي شرفٍ أعظم من هذا؟ وأي

اجتماعٍ في الأرض يوازي اجتماعًا يكون أثره في السماء أعظم من صورته في عيون الناس؟

وهنا يعود بنا الحديث إلى أصل الكتيب: ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾. فالذاكر لا يعيش في أفق الأرض وحدها. ذكره له امتدادٌ في الملأ الأعلى، وله أثرٌ يتجاوز ما يراه الناس. قد يجلس قومٌ في مجلسٍ بسيطٍ يذكرون الله، لا يعرفهم الإعلام، ولا تلتفت إليهم الدنيا، لكنهم في ميزان الله في مقامٍ عظيم. إن الأنس الحقيقي ليس بكثرة الضجيج حولك، بل بنزول السكينة عليك.

وهذا المعنى يداوي وحشة الخفاء. قد يقول العبد: لا أحد يعرفني، لا أحد يذكرني، لا أحد يقدّرني. فيقال له: وما الذي تريد أن يكون أعظم من أن تذكر الله فيذكرك الله بفضله؟ إن شهرة الأرض كلها لا تساوي لحظة قبولٍ عند الله، ولا لحظة سكينةٍ يسكبها الله في قلبك، ولا ذكرًا لك في ملأٍ خيرٍ من ملأ الأرض. ليست القضية أن تحتقر أثر الإنسان بين الناس، لكن أن تعرف أن هذا الأثر ليس معيارك النهائي.

ومن هنا كان الأنس بالله يعيد ترتيب علاقة العبد بالناس. فالذاكر يحب الناس ولا يعبدهم، يستأنس بهم ولا ينهار إذا غابوا، ينتفع بمدحهم الصادق ولا يجعله غذاءه الأعلى، يتألم من جفائهم ولا يجعل جفاءهم حكمًا نهائيًا على قيمته. في قلبه موضعٌ لا يصل إليه الناس، محفوظٌ للذكر، وهذا الموضع هو سر توازنه. من لا يملك هذا الموضع صار كلّه مكشوفًا للخارج، تهزه كلمة، وتكسره نظرة، وتحييه رسالة، وتميته قطيعة. أما الذاكر ففيه عمقٌ لا يراه الناس، لكنه يحميه منهم ومن نفسه.

ولذلك ينبغي أن يُفهم الأنس بالله لا بوصفه حالةً شعوريةً نادرةً تقع لبعض الصالحين فقط، بل بوصفه ثمرةً ممكنةً لكل قلبٍ يداوم على الرجوع. يبدأ الأنس أحيانًا بكلمةٍ ثقيلة على اللسان، ثم بوردٍ قصير، ثم بدمعةٍ عابرة، ثم بسكونٍ خفيف، ثم بمعرفةٍ تتراكم، حتى يصير القلب أسرع إلى الله عند الضيق، وأصدق في الخلوة، وأقل وحشةً إذا غاب الناس. ليس شرطًا أن يعيش العبد دائمًا في لذةٍ ظاهرة، لكن يكفي أن يعرف الباب، وأن لا يطول شروده عنه.

وقد يكون من فقه الأنس أن لا يطلبه العبد كغنيمة شعورية فقط، بل يطلب الله. فإن جاء الأنس حمد، وإن غابت اللذة ثبت، لأن الذكر عبادة قبل أن يكون راحة. وبعض القلوب تُربَّى في الجفاف أكثر مما تُربّى في الإشراق؛ إذ تتعلم أن تذكر الله لأنه الله، لا لأنها وجدت حالًا جميلًا في اللحظة. ثم إذا شاء الله فتح لها من الأنس ما لا تبلغه بطلب الشعور وحده.

ومن أرقى مقامات الأنس أن يشعر العبد أن القرآن يخاطبه، لا من جهة التخصيص الشخصي الذي لا دليل عليه، ولكن من جهة أن الوحي هدايةٌ له كما هو هدايةٌ لكل من أقبل عليه. يقرأ: ﴿**يَٰعِبَادِيَ**﴾ فيجد نفسه داخل النداء. يقرأ: ﴿**لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ**﴾ فيجد بابًا بعد ضيق. يقرأ: ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ فيتنفس قلبه. يقرأ: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾ فيعلم أن قلبه ليس شاذًا في طلب الطمأنينة، بل خُلق بحيث لا يطمئن إلا بربه.

والقرآن بهذا المعنى أعظم رفيق للذاكر. ليس كتابًا صامتًا، بل ذكرٌ مبارك، يوقظ وينير، يداوي ويعاتب، يفتح ويهز، يذكر الإنسان بما نسي، ويعيده إلى

ربه كلما سرقته الدنيا. من صحب القرآن لم تكن خلوته فارغة، ومن جعل له وردًا منه لم تكن أيامه بلا خطابٍ سماوي. وليس المقصود أن كل قراءة تبلغ الغاية نفسها، فالقلب يتفاوت، لكن المداومة على القرآن تزرع في الداخل حياةً لا يزرعها شيء آخر.

ومن هنا نصل إلى معنى عظيم: الذاكر لا يعيش وحيدًا لأن ذاكرته الإيمانية معمورة. فيها آيات، وأسماء حسنى، وأدعية نبوية، ومواقف أنبياء، ووعود إلهية، ونداءات رحمة، وأذكار صباح ومساء، واستغفار، وتسبيح، وحمد، وتكبير. فإذا جاء الخوف وجد في الذاكرة: **حسبنا الله ونعم الوكيل**. وإذا جاء الذنب وجد: **أستغفر الله وأتوب إليه**. وإذا جاءت النعمة وجد: **الحمد لله**. وإذا جاءت المصيبة وجد: **إنا لله وإنا إليه راجعون**. وإذا جاء العجز وجد: **لا حول ولا قوة إلا بالله**. وإذا جاءت الوحشة وجد: **فإني قريب**.

هذه الذاكرة ليست ترفًا، بل زاد نجاة. فالإنسان في لحظات الاضطراب لا يخترع المعاني من الصفر؛ إنما يستدعي ما تربى عليه. من ملأ قلبه بالذكر في السعة، وجد الذكر قريبًا في الضيق. ومن هجره طويلًا، احتاج في الشدة أن يبحث عن بابٍ كان مفتوحًا لكنه ابتعد عنه. ولذلك كان الذكر في الرخاء إعدادًا للذكر في البلاء، والأنس في العافية زادًا للأنس في الوحشة.

وفي الحديث: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»، وهو معنى جليل وإن كان أهل العلم يتكلمون في طرقه، وقد جاء معناه في وصية ابن عباس المشهورة. والمقصود صحيح في باب التربية: أن القلب إذا اعتاد الرجوع إلى الله قبل المحنة، لم يبدأ علاقته بالله من الصفر عند المحنة. من

ذكر الله في صباحات العافية، وجد في ليالي الشدة طريقًا مألوفًا إلى الدعاء. ومن أكثر من الحمد في النعمة، كان أقدر على الاسترجاع في المصيبة. ومن عاش مع القرآن قبل الظلمة، وجد آياته تنير له حين تظلم عليه الأسباب.

وهذا يجعل الأنس بالله بناءً طويلًا، لا ومضةً عارضة. إنما يُبنى بالمداومة، بالصدق، بالخلوة، بالاستغفار، بالقرآن، بالصلاة، بالانكسار، وبحفظ القلب من وحشة المعصية والغفلة. وكلما أخلص العبد في هذا البناء، صار في داخله موضعٌ آمن، ليس لأنه لا يتألم، بل لأنه يعرف إلى من يذهب بألمه.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن أن نقول: **الذكر لا يلغي حاجة الإنسان إلى الناس، لكنه يمنعه من أن يكون يتيم المعنى إذا غابوا؛ يفتح له باب الأنس بالله، فيعلم أن له ربًا قريبًا سميعًا مجيبًا، لا ينسى، ولا يغفل، ولا يضيع عنده شيء. ومن وجد هذا الباب لم تعد وحدته فراغًا مطلقًا، ولا خلوته ظلامًا محضًا، ولا خفاءه عدمًا، بل صار في قلبه نورٌ لا يملكه الناس ولا يسلبونه.**

وهكذا تتجلى آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ من وجهٍ جديد:
اذكروني، فلا تكونوا أسرى لذاكرة الناس.
اذكروني، فلا تجعلوا غياب الخلق غيابًا للمعنى.
اذكروني، تجدوا في ذكري أُنسًا يداوي وحشة القلب، وسكينةً تتنزل على مواضع الخوف، وكرامةً لا تقاس بما يقال عنكم في الأرض.

فالذاكر ليس إنسانًا بلا أحزان.
لكنه إنسان لا تبقى أحزانه بلا باب.
وليس إنسانًا لا يعرف الوحدة.

لكنه يعرف أن الوحدة لا تكون كاملةً حين يكون القلب ذاكرًا لله.

وليس إنسانًا استغنى عن رحمة الخلق.

لكنه عرف أن رحمة الخلق سببٌ محدود، وأن الرحمة الكبرى من الله، وأن من فتح الله له باب الذكر، فقد فتح له بابًا إلى الأنس الذي لا تستطيع الدنيا أن تمنحه كاملًا، ولا أن تسلبه إذا أُعطيه بصدق.

الفَصْلُ التَّاسِع

الذِّكْرُ وَمُدَاوَاةُ القَلَق: كَيْفَ يَسْتَرِدُّ القَلْبُ سَكِينَتَهُ؟

ليس القلق في الإنسان مجرد خوفٍ من شيءٍ محدد، بل هو أحيانًا حالةٌ عامةٌ من الارتجاف الداخلي، كأن النفس تقيم في مستقبلٍ لم يأتِ، وتعيش مع احتمالاتٍ لم تقع، وتحمل على ظهرها أثقالًا لم يكلّفها الله بحملها بعد. القلق هو أن يخرج القلب من لحظته، فلا يحسن العيش في الحاضر، ولا يملك الرجوع إلى الماضي، ولا يقدر على التحكم في الغد، فيبقى معلقًا بين ما فات وما يخاف أن يأتي، حتى تضيق عليه الدنيا لا لأن الخارج ضاق دائمًا، بل لأن الداخل فقد موضع السكون.

ومن هنا لا يعالج الذكر القلق كما تعالَج الأعراض السطحية، بل ينفذ إلى جذره العميق: أن القلب حين يغفل ينسى من بيده الأمر، ومن يملك الغد، ومن يصرّف الأقدار، ومن يعلم ما لا يعلم العبد، ومن يرحم ضعف الإنسان حين يعجز عن حمل نفسه. فالقلق في كثيرٍ من صوره ليس مجرد اضطراب شعوري، بل أثرٌ من آثار ضعف التوكل، أو نسيان المشيئة، أو تضخم الأسباب، أو سوء قراءة المستقبل، أو شعور الإنسان أنه مطالبٌ بأن يكون ربَّ مصيره، مدبّر كل عاقبة، ضامن كل نتيجة، حارس كل احتمال.

والذكر يأتي ليخلع عن الإنسان هذا العبء الكاذب. لا يحرره من العمل، لكنه يحرره من ادعاء السيطرة. لا يمنعه من التفكير، لكنه يمنع التفكير من أن

يتحول إلى عذابٍ دائري. لا يقول له: لا تخطط، بل يقول له: خطط وأنت تعلم أنك عبد، وأن الغد لله، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن قلبك لا ينبغي أن يقيم في احتمالٍ لم يخلقه الله لك بعد.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ الطلاق: ٣

هذه الآية من أعظم آيات السكينة في مواجهة القلق؛ لأنها لا تعطي الإنسان وعدًا غامضًا بالراحة، بل تعيد بناء وعيه على ثلاث حقائق كبرى: **التوكل**، و **كفاية الله**، و **تقدير الله لكل شيء**.

﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾: أي من أسند قلبه إلى الله بعد بذل ما يستطيع من الأسباب، لا من ترك الأسباب باسم التوكل، ولا من عبد الأسباب باسم الواقعية.

﴿**فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾: كافيه بما يليق بحكمة الله، لا بما تمليه عجلة العبد دائمًا.

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِ**﴾: لن يعجز شيءٌ مراد الله، ولن يسبق أحدٌ قدره، ولن تفلت الأمور من سلطانه.

﴿**قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾: فلا شيء مطلقٌ بلا حد، ولا ابتلاء بلا تقدير، ولا تأخر بلا حكمة، ولا ضيق بلا أجل يعلمه الله.

القلق يهمس للقلب: كل شيء مفتوح على الفوضى.

والآية تقول: **قد جعل الله لكل شيء قدرًا**.

القلق يقول: ربما تضيع.

والآية تقول: **فهو حسبه**.

القلق يقول: الأمور أكبر منك.
والآية تقول: نعم، لكنها ليست أكبر من الله: **إن الله بالغ أمره.**

وهنا تتجلى وظيفة الذكر في مداواة القلق: أن يعيد القلب من فوضى الاحتمالات إلى سلطان الله. فالقلق يصنع في الداخل عوالم كثيرة، أكثرها لم يقع، وربما لن يقع، لكنه يستنزف النفس كأنه واقعٌ كامل. والذكر لا يناقش كل احتمالٍ على حدة، بل يردّ الاحتمالات كلها إلى أصلٍ واحد: الأمر لله. فإذا قال العبد: **حسبي الله ونعم الوكيل،** فهو لا يجيب عن كل تفصيلٍ يخيفه، ولكنه يضع قلبه في حضرة الكفاية الإلهية. وإذا قال: **لا حول ولا قوة إلا بالله،** فهو يعلن أنه لا يملك دفع كل شيء، ولا جلب كل شيء، وأن التحول من حالٍ إلى حالٍ بالله. وإذا قال: **اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين،** فقد اعترف أن أعظم ما يخافه ليس المستقبل وحده، بل أن يواجه المستقبل بنفسه وحدها.

ومن أجل ذلك كان دعاء النبي ﷺ: «**يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**» من أجمع الأدوية الروحية للقلق.
فيه نداءٌ باسمين عظيمين: **الحي** الذي لا يموت، و **القيوم** الذي تقوم به السماوات والأرض، وبه قيام العبد وشأنه وقلبه. وفيه استغاثة بالرحمة، لا بالقوة الذاتية: **برحمتك أستغيث**. وفيه طلب إصلاح شامل: **أصلح لي شأني كله،** لأن القلق غالبًا يأتي من شعور الإنسان أن شؤونه مبعثرة، متداخلة، خارجة عن قدرته على الجمع والإصلاح. ثم تأتي ذروة الدعاء: **ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين،** وهي كلمة تهدم أصل القلق المتكبر؛ لأن القلق أحيانًا وجهٌ آخر من وجوه الاعتماد على النفس، كأن الإنسان يقول في داخله: يجب

أن أحمي كل شيء، وأضمن كل شيء، وأدبر كل شيء، وأسبق كل خطر. فيأتي الدعاء ليقول: يا رب، إن تُركت إلى نفسي ضعت، وإن توليتني برحمتك صلح شأني ولو عجزت أسبابي.

هذا الدعاء لا يلغي السعي، بل يطهّره من وهم الاكتفاء. لا يجعل الإنسان ضعيف الإرادة، بل يجعله صحيح الاعتماد. فالعبد الذي يعلم أنه لا يُترك إلى نفسه يكون أشد اتزانًا؛ لأنه لم يعد يحمل دعوى السيطرة الكاملة، ولم يعد يظن أن فشله في ضمان كل شيء دليل نقصٍ في إنسانيته. هو عبد، والعبد يسعى، ثم يلتجئ.

ومن أعظم ما يفعله الذكر في القلق أنه يردّ الإنسان إلى الحاضر. فالقلق يسرق القلب إلى غدٍ متخيل، أما الذكر يعيده إلى اللحظة التي يملك فيها أن يعبد الله الآن. أنت لا تملك الغد، لكنك تملك أن تذكر الله الآن. لا تملك نتائج كل شيء، لكنك تملك أن تقول: يا رب. لا تملك أن تغلق كل أبواب الخوف، لكنك تملك أن تفتح باب التوكل. وهكذا يسترد القلب موضعه العملي: بدل أن يضيع في احتمالاتٍ لا تنتهي، يعود إلى عبوديةٍ ممكنةٍ في اللحظة الحاضرة.

وهذا ظاهرٌ في قول الله تعالى: ﴿**وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا**﴾ الكهف: ٢٤

هذه الآية، في سياقها، تعلم أدب رد الأمور إلى مشيئة الله، لكنها أيضًا تفتح بابًا عجيبًا في علاج القلق: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي**﴾. إن القلق يقول: قد أضيع. والذكر يقول: قد يهديني ربي. القلق يقول: لا أرى الطريق. والذكر يقول: ربي قادرٌ أن يهديني لأقرب من هذا رشدًا. القلق يحبس الوعي في العجز،

والذكر يفتحه على الهداية. وليس المطلوب أن تعرف الطريق كله، بل أن تبقى مع الرب الذي يهدي.

وتأمل لفظ **الرشد**. القلق لا يطلب الراحة فقط، بل يحتاج إلى رشد؛ لأن كثيرًا من قرارات القلق ليست رشيدة، حتى لو بدت نشطة. الإنسان القلق قد يسرع فيندم، أو يهرب فيضعف، أو يتشبث بما ينبغي تركه، أو يترك ما ينبغي الصبر عليه، أو يفسر السكوت رفضًا، والتأخر هلاكًا، والابتلاء غضبًا. لذلك يحتاج إلى هداية الرشد، لا مجرد زوال الشعور المزعج. والذكر يطلب الرشد من الله: يا رب، اهدني إلى الفهم الصحيح، والقرار الصحيح، والصبر الصحيح، والباب الصحيح.

ومن هنا كان من أخطر آثار القلق أنه يفسد تفسير الإنسان للأحداث. فإذا تأخر الرزق، قال: ضعت. وإذا غاب شخص، قال: انتهت المودة. وإذا مرض، قال: هلكت. وإذا تعثر مشروع، قال: أُغلق المستقبل. وإذا ارتكب خطأ، قال: لا رجوع. فالقلق يجعل كل حدثٍ صغيرٍ نبوءةً كبرى. أما الذكر فيقاوم هذه النبوءات الكاذبة؛ لأنه يذكّر القلب بأن علم العاقبة عند الله، وأن الإنسان لا يجوز أن يحوّل شعوره اللحظي إلى حكمٍ نهائي على القدر.

قال الله تعالى: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ البقرة: ٢١٦

هذه الآية ميزانٌ كامل للقلق. القلق يكره الشيء فيحكم عليه بالشر المطلق. ويحب الشيء فيحكم عليه بالخير المطلق. أما الوحي فيكسر هذا الاستعجال: قد تكره ما فيه خير، وقد تحب ما فيه شر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وهذه

ليست دعوةً إلى تعطيل التمييز، بل إلى تواضع الشعور أمام علم الله. قد يكون ما تخافه الآن بابًا إلى نضجك، وقد يكون ما تطلبه بإلحاحٍ بابًا إلى فتنتك، وقد يكون التأخير حفظًا، وقد يكون المنع رحمة، وقد يكون ما تراه خسارةً صرفًا لشرٍّ أكبر لا تراه.

والذكر يجعل هذه الآية حاضرةً في اللحظات التي يثور فيها القلق. فإذا ضاق قلبك بشيء، قل: **الله يعلم وأنا لا أعلم**. وإذا تأخر ما تريد، قل: **عسى أن يجعل الله في ذلك خيرًا**. وإذا أُغلق باب، قل: **ربّي أدرى بما يصلحني**. ليست هذه الجمل إلغاءً للألم، بل منعٌ للألم من أن يتحول إلى سوء ظن. فالقلق لا يكتفي بأن يوجع القلب، بل يريد أن يفسد معرفته بالله. والذكر يحرس المعرفة.

ومن أبلغ الأذكار في هذا الباب قول المؤمن: **قدر الله وما شاء فعل**. هذه الكلمة ليست استسلامًا خامدًا، بل إيمانٌ بأن ما وقع لم يكن خارج سلطان الله، وأن الندم بعد وقوع المقدور لا ينبغي أن يتحول إلى تمزيقٍ للنفس. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

هذا الحديث يرسم منهجًا كاملًا في مقاومة القلق والندم.

احرص على ما ينفعك: لا تكن سلبيًا.

واستعن بالله: لا تعتمد على نفسك وحدها.

ولا تعجز: لا تستسلم للوهن.

وإن أصابك شيء: فالوقوع وارد رغم الحرص.

فلا تقل لو: لا تجعل الماضي طاحونةً تطحن قلبك.
ولكن قل قدر الله وما شاء فعل: أعد الحدث إلى القدر، لا إلى جلد الذات الدائم.
فإن لو تفتح عمل الشيطان: لأن الشيطان يدخل من باب الندم العقيم، فيحوّل المراجعة النافعة إلى عذابٍ لا يثمر.

وهذا من أدق ما يحتاجه القلق؛ التفريق بين **المحاسبة** و **التمزيق**. المؤمن يحاسب نفسه ليتعلم ويتوب ويصلح، لكنه لا يمزق قلبه بـ «لو» التي لا تعيد ماضيًا ولا تبني مستقبلًا. الذكر هنا يوقف النزيف: قدر الله وما شاء فعل. ثم بعد ذلك يتعلم العبد، ويصلح، ويأخذ بالأسباب، دون أن يبقى أسيرًا للحظةٍ انتهت.

ومن صور القلق أيضًا الخوف من الخلق: ماذا سيفعلون؟ ماذا سيقولون؟ هل يضرونني؟ هل يتركونني؟ هل يخذلونني؟ هل يسلبونني رزقي أو مكانتي؟ وهنا يأتي الذكر ليعيد الخلق إلى حجمهم. قال تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ التوبة: ٥١

هذه الآية لا تعلم المؤمن التهور، لكنها تحرره من الرعب. **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**؛ فلا أحد يملك أن يخلق قدرًا خارج كتابة الله. ولفظ **لنا** عجيب؛ كأن ما كتبه الله على المؤمن ليس منفصلًا عن حكمته ورحمته، حتى إن كان مؤلمًا في ظاهره. ثم قال: **هو مولانا**؛ أي لسنا في يد الحوادث العمياء، بل لنا مولى نتوكل عليه. ثم جاء الأمر: **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**.

إذا دخلت هذه الآية قلب القلق، بدأت قيوده تتفكك. الخلق لا يملكون لك ما لم يكتبه الله، ولا يمنعون عنك ما شاء الله، ولا يضرونك إلا بإذن الله، ولا ينفعونك إلا بما كتبه الله. هذا لا يعني أن لا تحذر من الظلم، ولا أن لا تأخذ بالأسباب، بل أن لا تجعل الخلق آلهةً في شعورك. والقلق من الناس غالبًا عبودية خفية لهم، والذكر يرد القلب إلى مولاه.

ومن أذكار الصباح والمساء العظيمة التي تبني هذا المعنى: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**». هذا الذكر يضع اليوم تحت استحضار اسم الله، لا تحت استحضار الخطر فقط. يبدأ العبد باسم الله، فيتعلم أن العالم ليس ساحة ضررٍ منفلت، وأن الأرض والسماء ليستا خارج سلطان الله، وأن الله سميع عليم. والخوف حين يسمع: **وهو السميع العليم**، يخسر بعض عتمته؛ لأن العبد يعلم أن ما لا يسمعه الناس يسمعه الله، وما لا يعلمه هو يعلمه الله.

ومن أعمق ما في القلق أنه يُشعر الإنسان بانقطاع السند. كأن كل شيء متروكٌ له، وكأن عليه أن يدير الكون الصغير حوله بلا عون. وهنا تأتي الصلاة على النبي ﷺ والذكر والدعاء لتعيده إلى شبكة المعنى: هو عبدٌ في أمةٍ لها نبي، وله رب، وله قبلة، وله قرآن، وله أذكار، وله سنن نجاة. ليس فردًا تائهًا في الفراغ. كل ركعة، كل أذان، كل تسبيحة، كل دعاء مأثور، تذكّره أنه داخل طريقٍ طويلٍ سار فيه الأنبياء والصالحون، وليس وحده في اختراع النجاة.

ولهذا كانت الصلاة نفسها من أعظم ما يداوي القلق. قال الله تعالى: ﴿**وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ**﴾ البقرة: ٤٥

الصلاة ليست فقط أداء فرض، بل استعانة. والقلق يحتاج إلى استعانة؛ لأن الإنسان القلق يشعر أنه لا يستطيع حمل الداخل. فإذا قام إلى الصلاة، كبّر، فصغرت المخاوف في حضرة التكبير. وقرأ الفاتحة، فعاد إلى الحمد والرحمة والعبودية والاستعانة والهداية. وركع، فانحنى ما كان منتصبًا من توتر النفس. وسجد، فوضع أثقل ما فيه على الأرض بين يدي الله. وسلم، كأن شيئًا من داخله عاد إلى نظامه.

ولذلك كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة. وهذا الفزع إلى الصلاة ليس هروبًا من المعالجة، بل دخولٌ إلى أعظم المعالجة؛ لأن من أكثر ما يفسد القرار في الأزمات قلبٌ مضطربٌ بعيدٌ عن الله. فإذا صلى، عاد إليه من السكينة والبصيرة ما يعينه على القرار والعمل والصبر.

ومن هنا ينبغي أن نفهم قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ**﴾
المعارج: ١٩-٢٣

هذه الآيات تشخص طبيعة الإنسان إذا تُرك لاضطرابه: هلوع، جزوع عند الشر، منوع عند الخير. ثم يأتي الاستثناء: **إلا المصلين**، لا الذين يصلون أحيانًا بصورةٍ عابرة، بل **الذين هم على صلاتهم دائمون**. فالصلاة الدائمة

تعيد تشكيل الطبيعة الهلعة، لا بإلغاء الضعف البشري، بل بتربيته على الصلة بالله. الهلع طبيعة قابلة للتهذيب، والصلاة والذكر هما من أعظم ما يهذبها.

فالإنسان بلا ذكر يتقلب مع المسّ: مسّه الشر فجزع، مسّه الخير فمنع. أما المصلي الذاكر، ففيه مركزٌ أعمق من المسّ العارض؛ إذا مسّه الشر لجأ، وإذا مسّه الخير شكر، وإذا تبدلت الأحوال لم يتبدل أصله. وهذا هو علاج القلق في عمقه: أن لا يكون قلبك معلّقًا بالمسّ المباشر فقط، بل بالرب الذي يملك الشر والخير، والمنع والعطاء، والقبض والبسط.

ومن أشد أنواع القلق: قلق الذنب والمصير. قد يخاف الإنسان من ماضيه، ومن سوء خاتمته، ومن لقاء الله، وهذا الخوف إن قاده إلى التوبة فهو نعمة، وإن قاده إلى القنوط صار مرضًا. والذكر يوازن بين الخوف والرجاء. قال الله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ**﴾ الحجر: ٤٩-٥٠

هذا هو الميزان: مغفرة ورحمة، وعذاب أليم. لا أمان مغرور، ولا يأس قاتل. الذاكر يذكر مغفرة الله فلا يقنط، ويذكر عذاب الله فلا يستهين. يستغفر لأنه يرجو، ويخاف لأنه يعلم قدر التقصير. ومن اختل عنده هذا الميزان عاش قلقًا من نوعين: إما قلق اليأس الذي يقطع الطريق، أو قلق الغفلة الذي يؤجل التوبة. والذكر الصحيح يفتح الطريق ولا يخدر الضمير.

ومن أعظم أذكار الرجاء قول النبي ﷺ في سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر**

لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

هذا الدعاء وحده مدرسة كاملة في مداواة قلق الذنب. يبدأ بالتوحيد والربوبية: **أنت ربي لا إله إلا أنت**. ثم بالاعتراف بالخلق والعبودية: **خلقتني وأنا عبدك**. ثم بالصدق الممكن لا الادعاء الكامل: **وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**. ثم بالاستعاذة من شر العمل، والاعتراف بالنعمة، والاعتراف بالذنب. لا إنكار، لا تبرير، لا قنوط. ثم طلب المغفرة ممن لا يغفر الذنوب إلا هو.

هذا هو الذكر الذي يشفي القلق الأخلاقي: أن تعرف ذنبك دون أن تجعله ربًا عليك، وأن تعرف نعمة الله دون أن تغتر، وأن تعرف باب المغفرة دون أن تتلاعب. فالقلق المريض يقول: انتهيت. والغفلة تقول: لا مشكلة. أما الاستغفار فيقول: أخطأت، وربّي غفور رحيم، وسأرجع.

ومن صور القلق أيضًا قلق الفقد. يخاف الإنسان أن يفقد من يحب، أو ما يحب، أو ما اعتاد. وهذا الخوف جزءٌ من تركيب البشر، لكن إذا انفصل عن ذكر الله صار عذابًا دائمًا. والذكر هنا لا يجعل الإنسان حجرًا، لكنه يضع المحبوبات في مقامها الصحيح: كلها لله، وكلنا إلى الله. قال تعالى:

﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**﴾ البقرة: ١٥٦

هذه الكلمة ينبغي أن تُحفظ قبل المصيبة، لا عندها فقط. من عرف قبل الفقد أن كل شيءٍ لله، كان أقدر على الصبر إذا وقع الفقد. ومن عرف قبل الرحيل أن الرجوع إلى الله، لم يرَ الموت عدمًا مطلقًا، بل انتقالًا إلى حكم الله ودار جزائه. إن **إنا لله** تحرر القلب من وهم الملكية المطلقة، و **إنا إليه راجعون**

تحرره من وهم الفناء العبثي. وبينهما يجد القلب عزاءً لا يلغي الدموع، لكنه يمنعها من أن تغرقه.

ومن أرق ما يداوي القلق أن يذكر العبد اسم الله **اللطيف**. قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ يوسف: ١٠٠

قالها يوسف عليه السلام بعد رحلةٍ طويلةٍ من الجبّ، والبيع، والفتنة، والسجن، والانتظار، والتمكين، واجتماع الشمل. اللطف هنا لم يكن ظاهرًا في كل محطة كما يريد الإنسان العجل، لكنه كان يعمل في الخفاء. والقلق غالبًا يعجز عن رؤية اللطف لأنه يريد النتيجة الآن. أما الذكر فيعلّم القلب أن لله تدبيرًا خفيًا قد لا تنكشف حكمته إلا بعد زمن، وربما لا تنكشف كلها في الدنيا. **لطيف لما يشاء**؛ يدخل الخير من أبوابٍ دقيقة، ويصرف الشر بطرائق لا يعلمها العبد، ويربي الإنسان بما يخفى عليه وجهه في البداية.

فإذا قال القلق: لا أرى شيئًا، قال الذكر: يكفي أن الله يرى.
وإذا قال القلق: لا أفهم، قال الذكر: **إنه هو العليم الحكيم**.
وإذا قال القلق: تأخر الفرج، قال الذكر: اللطف قد يعمل في التأخير كما يعمل في التعجيل.
وإذا قال القلق: ضاعت الطريق، قال الذكر: كم من طريقٍ بدا ضياعًا وكان تمهيدًا لفتحٍ لم يخطر في البال.

ومن هنا لا يكون الذكر مجرد خفضٍ لتوتر اللحظة، بل بناء ذاكرة ثقة. كلما تذكر العبد كيف لطف الله به من قبل، وكيف نجاه، وكيف فتح له بعد ضيق، وكيف ستره، وكيف هداه، وكيف صرف عنه ما لم يكن يعلم خطره، صار

قلبه أقدر على مقاومة قلق الحاضر. ولذلك كان من الذكر أن يتذكر العبد أيام الله، ونعم الله، وألطاف الله. قال تعالى: ﴿**وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ**﴾ إبراهيم: ٥

أيام الله هي مواطن النعمة والنقمة والعبرة والتدبير. وفي حياة كل إنسان أيامٌ لو تذكرها لخفّ قلقه: يومٌ نجا من أمرٍ ظنه نهاية، يومٌ جاءه رزقٌ من حيث لا يحتسب، يومٌ انصرف عنه شرٌّ لم يكن يقدر على دفعه، يومٌ تاب بعد غفلة، يومٌ ثبته الله حين كاد ينهار. هذه الذاكرة الإيمانية دواءٌ عظيم؛ لأن القلق يجعل الإنسان ينسى كل نجاةٍ سابقة، ويعيش الأزمة الجديدة كأنها أول دليلٍ وحيد على مصيره. والذكر يعيد السجل كاملًا: ألم يلطف الله من قبل؟ ألم يفتح؟ ألم يستر؟ ألم يكفِ؟

ومع ذلك ينبغي أن يبقى الذكر منضبطًا: لا يعد الإنسان نفسه بأن كل ما يخافه لن يقع، فهذا ليس وعدًا شرعيًا، بل قد يقع بعض ما يخاف. لكن الذكر يعده بما هو أعظم: إن وقع، فلن يقع خارج علم الله، ولن تكون بلا بابٍ إلى الله، ولن يُعدم المؤمن معنى العبودية فيه، ولن يضيع الصبر والدعاء والعمل الصالح عند الله. الطمأنينة ليست ضمانةً بأن الدنيا ستوافق رغباتنا كلها، بل يقينٌ بأن الله ربنا في كل حال.

وهذه نقطة فاصلة؛ لأن بعض القلق يزيد حين يتوهم الإنسان أن الإيمان يعني أن لا يصيبه ما يكره. فإذا أصابه ما يكره اضطرب إيمانه. أما الذكر الصحيح فيربيه على أن الدنيا دار ابتلاء، وأن الله يبتلي من يحب، وأن العافية تُسأل، والبلاء يُصبر عليه، والفرج يُرجى، والأجر لا يضيع. بهذا يصبح القلب واقعيًا بنور الوحي، لا متوهمًا ولا قانطًا.

ومن أعمق أدوية القلق كذلك: كثرة الصلاة على النبي ﷺ؛ لأنها تخرج القلب من دورانه حول نفسه إلى محبة النبي والاقتداء به، وتفتح بابًا من أبواب الرحمة والسكينة. وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ الأحزاب: ٥٦

الصلاة على النبي ﷺ ليست مجرد لفظٍ شريف، بل صلةٌ بسلسلة الهداية التي أخرج الله بها الناس من الظلمات إلى النور. حين يصلي المؤمن على النبي ﷺ، يتذكر أنه ليس متروكًا لفلسفات القلق وحدها، بل له رسولٌ دلّه على ربه، وعلّمه كيف يدعو، وكيف يصبر، وكيف يذكر، وكيف يقرأ الدنيا في ضوء الآخرة. ومن أكثر الصلاة عليه وجد في قلبه من لين الصلة بالوحي ما يعينه على مقاومة قسوة القلق.

والقلق في النهاية يحتاج إلى ثلاثة أدوية متلازمة: **ذكرٌ يطمئن، وعملٌ يصحح، وتسليمٌ يريح**.

فمن ذكر ولم يعمل، بقي قلقه يتغذى من إهماله. ومن عمل ولم يذكر، صار عمله قلقًا آخر. ومن ذكر وعمل ولم يسلّم، بقي معترضًا على ما لا يملك. والكمال أن يذكر الله، ويأخذ بالسبب، ثم يسلّم النتيجة لله. وهذا هو المعنى الجامع لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ آل عمران: ١٥٩

العزم قبل التوكل، والتوكل بعد العزم ومعه. ليست الحياة فوضى بلا قرار، ولا قرارًا بلا اعتماد على الله. وإذا فعل العبد ما يستطيع، بقي عليه أن لا يعبد النتيجة. وهذه هي منطقة القلق الأخيرة: بعد أن تعمل، اترك ما لا تملك لمن

يملكه. لا تظل واقفًا على باب النتيجة كأنك تستطيع فتحه بقوة اضطرابك. اذكر الله، وانتظر حكمته.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن أن نقول:

الذكر يداوي القلق لأنه يعيد القلب من فوضى الاحتمالات إلى يقين الربوبية، ومن عبء السيطرة إلى سكينة التوكل، ومن سجن الماضي إلى باب الاستغفار، ومن رعب المستقبل إلى مشيئة الله، ومن تضخم الأسباب إلى كفاية مسبب الأسباب. إنه لا يعد العبد بدنيا بلا ابتلاء، لكنه يمنحه قلبًا لا يواجه الابتلاء بلا رب.

وهكذا تتجلى آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ في باب القلق:
اذكروني حين يزدحم المستقبل في صدوركم.
اذكروني حين تعجزون عن حمل أنفسكم.
اذكروني حين تتكاثر الاحتمالات وتضيق الأنفاس.
أذكركم بفضلٍ يردّ قلوبكم إلى السكينة، ويفتح لكم من الرشد ما لا تفتحونه بقلقكم، ويكفيكم بما يليق بحكمتي ورحمتي.

فالقلق يقول للإنسان: أنت وحدك أمام ما لا تملك.
والذكر يقول له: أنت عبدٌ لربٍّ يملك ما لا تملك.
وبين الجملتين تتغير الحياة كلها؛ لا لأن العواصف تنتهي دائمًا، بل لأن القلب يجد مرساه في اسم الله، ووعد الله، وكفاية الله.

الفَصْلُ العَاشِر

الذِّكْرُ وَتَطْهِيرُ الذَّاكِرَة: مِنْ سُلْطَانِ الجُرْحِ إِلَى نُورِ العِبْرَة

ليست ذاكرة الإنسان مخزنًا محايدًا للأحداث، بل هي أحد أعظم المواطن التي يتشكل فيها معنى الحياة داخله؛ فما يحتفظ به القلب لا يبقى صورةً ساكنةً في الخلف، بل يتحول مع الزمن إلى عدسةٍ يرى بها نفسه، والناس، والعالم، وربما يقرأ بها أقدار الله قراءةً مضطربةً إن لم يدخلها نور الوحي والذكر. فقد يحمل الإنسان جرحًا قديمًا، لا لأنه وقع فقط، بل لأنه صار تعريفًا خفيًا لحياته؛ ويحتفظ بخذلانٍ مضى، لا بوصفه حادثةً عابرة، بل بوصفه ميزانًا يقيس به كل علاقة؛ ويظل أسير ذنبٍ تاب منه أو لم يتب، لا لأنه يذكره للعبرة، بل لأنه سمح له أن يصير سجنًا للروح.

ومن هنا لا يداوي الذكر حاضر الإنسان فقط، بل يدخل إلى ذاكرته، فيطهّرها من سلطان الجرح، وسوء الظن، واليأس، والمرارة، والتفسير المظلم للأحداث. فالذكر لا يمحو الماضي بمعنى إلغاء وقوعه، ولا يطلب من الإنسان أن يتظاهر بأن ما آلمه لم يكن مؤلمًا، لكنه يعيد إدخال الماضي في نظام المعنى؛ فيصبح الجرح موضع بصيرة، والذنب موضع توبة، والنعمة موضع شكر، والنجاة موضع حمد، والخذلان موضع افتقار إلى الله، والابتلاء موضع قراءةٍ أطول من لحظة الألم.

ولذلك كان القرآن كثيرًا ما يستدعي الذاكرة، لا ليغرق الإنسان في الماضي، بل ليهديه إلى طريقة صحيحة في تذكّره. قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ فاطر: ٣

هذا الأمر ليس تذكيرًا معلوماتيًا فحسب، بل هو علاجٌ عميق لذاكرة السخط. فالإنسان إذا لم يذكر النعمة، استبدّت به ذاكرة النقص. وإذا لم يستحضر ما أعطي، ابتلعه ما مُنع. وإذا لم يتذكر ما ستر الله عليه، بقي مشغولًا بما انكشف له من وجع. وإذا لم يرَ وجوه اللطف الماضية، قرأ البلاء الحاضر كأنه أول كلمةٍ وآخر كلمةٍ في حياته. ومن هنا كان ذكر النعمة إعادة توازنٍ للذاكرة؛ لأنه يمنع الألم من احتكار الرواية كاملة.

كم من إنسانٍ يملك في تاريخه من النجاة والستر والرحمة والفتح ما لو استحضره لانكسر شيءٌ من قلقه، لكنه حين تضيق به لحظةٌ واحدة ينسى السجل كله، ويعيش كأن حياته لم تعرف إلا الضيق. والذكر هنا يوقظه: اذكر نعمة الله عليك. اذكر كم مرة كنتَ تظن الباب مغلقًا ففتح الله غيره. وكم مرة خفتَ أمرًا فصرفه الله. وكم مرة حملك الله حين لم تكن قادرًا على حمل نفسك. وكم مرة ستر عيبك، وجبر كسرك، وأطعمك بعد حاجة، وهداك بعد حيرة، وأبقاك بعد ضعف.

وليس هذا تزيينًا مصطنعًا للماضي، بل إنصافٌ للذاكرة. فكما أن من الظلم أن تنكر الألم، فمن الظلم أيضًا أن تنكر النعمة. والذاكرة المؤمنة لا تكذب على نفسها؛ لا تقول إن كل شيء كان جميلًا، لكنها لا تسمح للقبيح أن يمحو

الجميل، ولا للجرح أن يلغي اللطف، ولا للابتلاء أن يستولي على معنى العمر كله.

ومن هنا كان الحمد من أعظم أذكار الذاكرة. حين يقول العبد: **الحمد لله**، فهو لا يعلّق الحمد على اللحظة المريحة فقط، بل يربّي ذاكرته على رؤية فضل الله في الماضي والحاضر، في العطايا الظاهرة والخفية، في النعم التي عرفها والنعم التي لم يعرف أنها نعم. والحمد لا يعني أن كل ما وقع كان محبوبًا للنفس، بل يعني أن الله محمودٌ في حكمه وفعله وعطائه ومنعه، وأن العبد يرى من رحمته ما يكفيه ليحسن الظن بما خفي عنه.

ولهذا كانت الفاتحة تبدأ بـ: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ الفاتحة: ٢

كأن أول ما يتربى عليه قلب المؤمن في كل صلاة أن لا يفتتح وعيه بالسخط، ولا بالاعتراض، ولا باستدعاء النقص، بل بالحمد. والحمد هنا ليس كلمةً في الفراغ؛ إنه إعادة توجيه للذاكرة والشعور. فالذي يكرر الحمد في صلاته كل يوم يتعلم أن يعود إلى الأصل قبل أن تجرّه التفاصيل: الله محمود، والله رب، والله رحمن رحيم، والله مالك يوم الدين. فإذا دخلت هذه المعاني الذاكرة، لم تعد الأحداث المتفرقة قادرةً على كتابة الرواية وحدها.

ومن أعجب أمر الإنسان أنه ينسى النعمة بسرعة، لكنه يتذكر الجرح طويلًا. ينسى سنوات العافية، ثم يضطرب لشهر المرض. ينسى أبواب الرزق التي فُتحت له، ثم يختنق عند بابٍ واحدٍ أغلق. ينسى من أحسنوا إليه، ثم يجعل من أساء إليه عنوان الناس كلهم. وهذه طبيعة تحتاج إلى تربية، لا إلى وعظٍ

عابر. والذكر هو هذه التربية المتكررة؛ لأنه يعيد إلى القلب ما يحاول الألم أن يطمسه.

قال الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿**يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ**﴾ البقرة: ٤٠

تكرر هذا النداء في القرآن لأن النعمة إذا لم تُذكر جُحدت أو خفّ أثرها. وقد يظن الإنسان أن الجحود موقفٌ لسانيٌّ صريح، والحقيقة أن من أخطر الجحود جحود الذاكرة؛ أن لا تستحضر فضل الله إلا قليلًا، وأن تتصرف شعوريًا كأن حياتك كانت سلسلة حرمان، مع أن نعم الله تحيط بك من حيث تعلم ومن حيث لا تعلم. وذكر النعمة ليس مجرد امتنانٍ وجداني، بل هو بناءٌ للعقيدة الشعورية: الله لم يتركني، الله لطيف بي، الله أنعم علي، الله سترني، الله ربّاني، الله ساق إليّ من الخير ما لا أحصيه.

وهذه الذاكرة الممتنة هي التي تمنح القلب قدرةً على الثبات حين يجيء البلاء. فمن عاش ذاكرًا للنعم لم يكن البلاء عنده دليلًا على غياب الرحمة، بل محطةً داخل تاريخٍ طويلٍ من اللطف. أما من نسي النعم، فإن أول بلاءٍ قد يبدو له كأنه تعريف الله له، فيضطرب، لأنه لم يحتفظ في قلبه بشواهد الرحمة.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ**﴾ إبراهيم: ٥

أيام الله هي المواطن التي ظهر فيها تدبيره، ونصره، ونقمته من الظالمين، ونعمته على المؤمنين، وعبرته في الأمم والأفراد. والآية تربط الانتفاع بهذا

التذكير بصفتي **الصبر** و **الشكر**؛ لأن من لا يصبر لا يرى تمام القصة، ومن لا يشكر لا يقرأ النعمة حق قراءتها. الذاكرة المؤمنة تحتاج إلى الصبر حتى لا تستعجل الحكم على الحدث، وتحتاج إلى الشكر حتى لا تنسى فضل الله في الطريق.

ولكل عبدٍ أيامٌ مع الله، وإن لم تكن كأيام الأمم الكبرى. له يومٌ نُجي فيه، ويومٌ فُتح له، ويومٌ كُشف عنه غمّ، ويومٌ تاب الله عليه، ويومٌ صرف عنه سوءًا لم يكن يعلم حجمه، ويومٌ رزقه من حيث لا يحتسب، ويومٌ ثبته في فتنة، ويومٌ ألقى في قلبه آيةً أو ذكرًا كان أوسع من الدنيا. فإذا لم يذكّر نفسه بهذه الأيام، ضاعت في غبار العادة، وبقيت الأيام الصعبة وحدها تتصدر الذاكرة.

ومن أعظم ما يصنعه الذكر أنه يحوّل الذاكرة من ساحة اتهامٍ إلى ساحة عبرة. فالإنسان الغافل قد يتذكر الماضي ليجلد نفسه، أو ليلوم الناس، أو ليغذي كراهيته، أو ليعيد فتح الجرح دون معنى. أما الذاكر فيتذكر ليعتبر، وليتوب، وليشكر، وليتعلم، وليعرف سنن الله في نفسه. وهذا الفرق جوهري: ليست المشكلة في تذكر الماضي، بل في الطريقة التي يتذكر بها الإنسان الماضي.

قال الله تعالى: ﴿**فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ**﴾ الحشر: ٢

والاعتبار هو العبور من صورة الحدث إلى معناه. أن لا تقف عند الواقعة وحدها، بل تعبر منها إلى سنّة، وإلى حكمة، وإلى إصلاح، وإلى يقظة. فإذا تذكر العبد ذنبًا، لم يبقَ عند الخزي وحده، بل عبر إلى التوبة والاستغفار والحذر من أسباب السقوط. وإذا تذكر خذلانًا، لم يبقَ عند المرارة وحدها، بل عبر إلى أن التعلق المطلق بالخلق يوجع، وأن القلب ينبغي أن يستند إلى الله.

وإذا تذكر فشلًا، لم يبقَ عند تحقير نفسه، بل عبر إلى التعلم وتصحيح الطريق. وإذا تذكر نعمةً، لم يبقَ عند لذتها، بل عبر إلى حمد المنعم.

وهكذا يكون الذكر فنَّ عبورٍ من الماضي إلى الله.

أما الذاكرة الغافلة فهي لا تعبر، بل تقيم. تقيم في الجرح، وتقيم في الذنب، وتقيم في الخسارة، وتقيم في الخذلان، حتى يصير الماضي حاضرًا دائمًا. والذكر يحررها من هذه الإقامة المظلمة؛ لأنه يقول لها: ليس المطلوب أن تنسي، بل أن تفهمي على نور الله، وأن ترجعي بما حدث إلى مقام العبودية.

ومن أكثر ما يحتاج إلى تطهيرٍ بالذكر: ذاكرة الذنب. فالذنب إذا دخل الذاكرة بلا توبةٍ واستغفار، صار إما مادةً للإصرار والتبلد، وإما مادةً للقنوط والانكسار المرضي. كلاهما خطر. فقد يذكر الإنسان ذنبه حتى يألفه، فيموت حياؤه. وقد يذكره حتى ييأس، فيموت رجاؤه. أما الذكر الصحيح فيجعله يتذكر الذنب ليتوب، لا ليألف ولا ليقنط.

قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ آل عمران: ١٣٥

تأمل دقة المسار: وقع الذنب، ثم جاء **ذكر الله**، ثم جاء **الاستغفار**، ثم جاء ترك الإصرار. فالنجاة من الذنب تبدأ من استعادة الذاكرة الإيمانية: من هو الله؟ من أنا؟ إلى من أرجع؟ من يغفر الذنوب؟ ماذا أفعل الآن؟ ولو بقي الإنسان

بعد الذنب يذكر نفسه فقط، ربما غرق في كراهية الذات أو في التبرير. لكنه حين يذكر الله، يرى الذنب أمام الغفور الرحيم، لا أمام يأسه وحده. فيرجع.

ومن هنا كان الاستغفار علاجًا للذاكرة، لا للصحيفة فقط. فهو يبدل علاقة الإنسان بذنبه؛ لا يعود الذنب مركز هويته، بل يصبح موضع توبةٍ وتواضعٍ وحذر. وقد يكون الذنب بعد التوبة سببًا في انكسارٍ نافعٍ يطرد العجب، لا لأن الذنب خيرٌ في نفسه، بل لأن الله قد يخرج من توبة العبد ما يطهره من غرورٍ كان أخطر عليه. ومع ذلك لا يتمنى العبد الذنب، ولا يهون منه، بل يحمد الله إن عافاه، ويتوب إن ابتلي.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**».

هذا الحديث لا يفتح باب التهاون، بل يفتح باب الرجوع. إنه يحرر الذاكرة من وهم الكمال المستحيل، ومن يأس السقوط النهائي. كل بني آدم خطاء، لكن القضية ليست أن لا تقع مطلقًا، بل أن لا تصير خطيئتك وطنًا. خير الخطائين التوابون؛ أي الذين لا يجعلون الذاكرة مستنقعًا، بل يجعلونها طريقًا إلى التوبة. فالذكر يعينك أن تقول بعد السقوط: أستغفر الله، لا أن تقول: انتهيت.

ومن الذاكرات التي تحتاج إلى تطهير: ذاكرة الظلم. قد يظلمك إنسان، فيبقى فعله في قلبك كالشوكة، ثم تتحول الشوكة إلى عدسةٍ ترى بها كل الناس. وإذا لم يدخل الذكر هذا الموضع، صارت الذاكرة مدرسةً للمرارة. لكن الذكر لا يقول لك: الظلم لم يقع، ولا يقول لك: لا تطلب حقك بالطرق المشروعة، بل

يقول لك: لا تسمح للظلم أن يسرق قلبك من الله، ولا للظالم أن يسكن داخلك أكثر مما يستحق.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ إبراهيم: ٤٢

هذه الآية من أعظم ما يداوي ذاكرة المظلوم. فالمظلوم قد لا يؤلمه الفعل وحده، بل يؤلمه شعوره أن الظلم مرّ بلا شاهد، وأن الجرح بلا ميزان، وأن الحق ضاع في زحام الدنيا. فتأتي الآية: لا تحسبن الله غافلًا. الله ليس غافلًا عن الظالم، ولا عن المظلوم، ولا عن التفاصيل التي عجزت عن إثباتها للناس. وهذا العلم الإلهي ليس كعلم الخلق، بل علمٌ كاملٌ محيط، يليق بجلال الله وعدله.

هذه الآية لا تمنع طلب العدل، لكنها تمنع اليأس من العدل الإلهي. ولا تلغي الألم، لكنها تمنع الألم من أن يتحول إلى اعتقادٍ بأن الوجود بلا حساب. فإذا ذكرها القلب، خفّ شيءٌ من ثقل المطاردة الداخلية؛ لأنه يعلم أن القضية ليست متروكةً لضعفه، ولا لذاكرة الناس، ولا لميزان الأرض وحده. هناك يومٌ تُردّ فيه المظالم، وربٌّ لا يغفل.

ومن هنا يكون الذكر حمايةً للمظلوم من أن يتحول ظلمه إلى سمٍّ يفسد قلبه. فقد ينجو الإنسان من يد الظالم، لكنه لا ينجو من أثره إذا بقي الظالم مقيمًا في ذاكرته على صورة حقدٍ دائمٍ يأكل روحه. والذكر لا يطلب منه أن يتصنع الصفاء قبل أوانه، لكنه يفتح له طريقًا: فوّض أمرك إلى الله، استعن بالله، اطلب حقك بلا تجاوز، لا تجعل الظلم يقطعك عن الصلاة، ولا تجعل الجرح

يفسد حسن ظنك بربك. قل: **حسبي الله ونعم الوكيل**، لا ككلمة انتقامٍ أعمى، بل كإعادة إسناد القضية إلى عدل الله وكفايته.

ومن أعمق ما يطهّره الذكر أيضًا: ذاكرة الفقد. فالإنسان حين يفقد من يحب أو ما يحب، قد تحتل لحظة الفقد ذاكرته حتى تمحو كل ما قبلها. تصبح النهاية المؤلمة هي القصة كلها، وينسى ما كان فيها من رحمةٍ وصحبةٍ ونعمةٍ ومعنى. وهنا يأتي الاسترجاع: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**﴾ البقرة: ١٥٦

هذه الكلمة لا تُقال لتجميد المشاعر، بل لإعادة الفقد إلى معناه الإيماني. **إنا لله**: نحن ومن نحب لله، لسنا ملاكًا مستقلين لأنفسنا ولا لمن حولنا. **وإنا إليه راجعون**: الفقد في الدنيا ليس نهاية الوجود، بل كلنا راجعون إلى الله. هذه الكلمة تطهر ذاكرة الفقد من وهمين: وهم الملكية المطلقة، ووهم النهاية المطلقة. ولذلك لا تمنع الدمع، لكنها تمنع اليأس. لا تمنع الحنين، لكنها تمنع الاعتراض على أصل الرجوع إلى الله.

ولعل من رحمة الله أن جعل الاسترجاع كلمةً قصيرةً جامعة؛ لأن المصيبة لا تترك للإنسان قدرةً طويلةً على البيان. في لحظة الانكسار يحتاج القلب إلى جملة تحمل عنه المعنى كله، فجاءت: **إنا لله وإنا إليه راجعون**. إنها سفينةٌ صغيرةٌ في بحرٍ ثقيل، لكنها تحمل من العقيدة ما يعبر بالقلب من الصدمة إلى الصبر.

ومن الذاكرة التي يطهرها الذكر: ذاكرة النعمة بعد زوالها. فقد ينعم الله على العبد بنعمةٍ ثم تزول، فيتحول تذكرها إلى حسرةٍ دائمة، كأنها لم تكن نعمةً

قط، بل صارت مصدر عذاب. والذكر يعيدها إلى موضعها: كانت فضلًا، فاحمد الله عليها؛ وزالت بحكمته، فاصبر؛ وما عند الله أبقى، فارجُ. لا تجعل النعمة السابقة تتحول إلى سخطٍ لاحق. كم من إنسانٍ لا يشكر ما أُعطي لأنه حزينٌ على ما زال، مع أن ما زال كان يومًا نعمةً تستحق الحمد، وما بقي الآن كذلك يستحق الحمد.

ولهذا كان من فقه الحمد أن يحمد العبد الله على ما بقي كما يحمده على ما مضى. فالشيطان يريد أن يجعل الفقد يمحو ذاكرة العطاء. أما الذكر فيقول: بل احمد الله أنه أعطى، واحمده أنه ستر، واحمده أنه أبقى لك من النعم ما لا تحصي، واطلب منه العوض والرحمة والثبات. بهذا لا تصير الذاكرة مقبرةً للفرح القديم، بل موضع شكرٍ وصبرٍ ورجاء.

ومن أعظم ما يطهّر الذاكرة أيضًا: ذكر قصص الأنبياء. فالقرآن لا يورد القصص للتسلية، بل لبناء ذاكرة نموذجية للمؤمن. حين يتذكر يوسف عليه السلام، يتعلم أن الجبّ ليس آخر القصة، وأن السجن قد يكون طريقًا إلى التمكين، وأن تأخر الفرج لا يعني غياب اللطف. وحين يتذكر موسى عليه السلام، يتعلم أن البحر قد ينشق حين تنتهي حسابات البشر. وحين يتذكر يونس عليه السلام، يتعلم أن ظلماتٍ ثلاثًا لا تمنع وصول الدعاء. وحين يتذكر أيوب عليه السلام، يتعلم أن البلاء الطويل لا يسقط مقام العبودية إذا بقي القلب ذاكرًا.

قال الله تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ الأنبياء: ٨٣

هذا النداء من أرقى صور الذكر في الوجع. لم يطل الشكوى، ولم يعترض، بل وصف حاله بأدب: **مسني الضر**، ثم أثنى على ربه: **وأنت أرحم الراحمين**. كأن ذاكرة البلاء لم تحجب عنه ذاكرة الرحمة. وهذا هو جوهر الذكر في المصيبة: أن ترى الضر، لكن لا تنسَ أن ربك أرحم الراحمين. فالبلاء حين يحتل الذاكرة وحده قد يجعل الإنسان ينسى اسم الرحمن الرحيم، أما أيوب عليه السلام فجمع بين صدق الألم وحسن المعرفة بالله.

ثم قال الله: ﴿**فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ**﴾ الأنبياء: ٨٤

ليست كل قصة عبدٍ كقصة نبي، وليس كل بلاءٍ يكشف في الدنيا كما يحب الإنسان، لكن الآية تزرع في الذاكرة معنىً عظيمًا: أن الدعاء في الضر ليس ضائعًا، وأن الله أرحم الراحمين، وأن الضر لا ينبغي أن يمنع العبد من النداء. فإذا خزّن القلب هذه القصة في ذاكرته، لم يعد بلاؤه الخاص بلا نسبٍ إيماني؛ إنه يسير في طريقٍ عرفه الأنبياء والصالحون.

ومن هنا يصبح القرآن ذاكرةً بديلةً عن ذاكرة الجرح وحدها. الإنسان الذي لا يقرأ إلا قصته الشخصية قد يختنق، أما من يقرأ قصته داخل قصص القرآن يرى أن الابتلاء سنة، وأن النجاة ممكنة، وأن اللطف قد يخفى، وأن الله يربي عباده، وأن العاقبة ليست دائمًا كما تبدأ الأحداث. هذه الذاكرة القرآنية توسع الداخل؛ لأنها تمنع التجربة الشخصية من أن تصير الكون كله.

ومن الذكر الذي يطهر الذاكرة كذلك: الصلاة على النبي ﷺ؛ لأنها تربط قلب المؤمن بسيرةٍ عظمى من الصبر والرحمة والبلاغ والجهاد والابتلاء والتأييد. حين يصلي العبد على النبي ﷺ، لا يذكر اسمًا مجردًا، بل يتصل بمشكاة

الهداية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور. ويتذكر أن أشرف الخلق ﷺ عرف اليتم، والفقد، والأذى، والهجرة، والحصار، وموت الأحبة، ومع ذلك بقي قلبه أكمل القلوب عبوديةً ورحمةً وثباتًا. فليست آلام الإنسان عذرًا للقطيعة، بل يمكن أن تكون طريقًا إلى التعلق الأصدق بالله.

ومن أخطر أمراض الذاكرة: ذاكرة الإحسان غير المعترف به. قد يفعل الإنسان خيرًا، ثم لا يجد شكرًا، فيتولد في قلبه حزنٌ أو مرارةٌ أو رغبةٌ في ترك المعروف. وهنا يأتي الذكر ليعيد العمل إلى وجهته. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا**﴾ الإنسان: ٩

هذه الآية تطهّر ذاكرة الإحسان من ابتزاز الاعتراف البشري. لا يعني ذلك أن شكر الناس ليس جميلًا، بل يعني أن العمل إذا كان لله لا ينبغي أن ينهار بجحود الناس. من عمل لوجه الله، وجد في علم الله وشكره وكفايته ما يحفظ قلبه من المرارة. أما من جعل الاعتراف البشري شرطًا لاستمرار الخير، صار المعروف عنده تجارةً شعوريةً قابلةً للانهيار.

والذكر هنا يقول للعامل: تذكر لمن عملت. إن كان لله، فلا يضيع. وإن كان للناس، فقد دخلت سوقًا مضطربة. قال تعالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ**﴾
البقرة: ١١٠

هذا الوعد يحرر الذاكرة من ألم الجحود. قد لا تجد عملك عند الناس، لكنك تجده عند الله. وقد لا يذكرك من أحسنت إليه، لكن الله لا ينسى. وهذا يعيد

القلب إلى السعة: ليس مطلوبًا أن تلغي حاجتك الفطرية للتقدير، لكن لا تجعلها إلهًا يقرر استمرار إحسانك.

ومن الذاكرات التي تحتاج إلى تطهير: ذاكرة الهوية القديمة. قد يظل الإنسان يعرف نفسه بما كان عليه: أنا الفاشل، أنا المذنب، أنا المخذول، أنا الضعيف، أنا الذي لم يُنصف، أنا الذي تأخر. والذكر يعيد تسميته: أنت عبد الله، وباب الله مفتوح، وما مضى ليس كل ما يمكن أن يكون، والهداية تجدد الإنسان، والتوبة تصنع بدايةً جديدة، والفضل ليس محصورًا في تاريخك السابق. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ البقرة: ٢٢٢

تأمل: **يحب التوابين**. لم يقل فقط يقبلهم، بل يحبهم. والتواب كثير الرجوع، أي له تاريخٌ من السقوط والقيام، لكنه لم يجعل السقوط نهاية. هذه الآية تطهر ذاكرة العبد من الاحتقار الدائم للنفس. إن الله يحب التوابين؛ فكيف تجعل ماضيك مانعًا من الرجوع؟ وكيف تسمح للشيطان أن يعرفك بذنبٍ يريد الله أن يغفره لك إذا صدقت في التوبة؟

ومن هنا تكون الذاكرة المؤمنة ذاكرةً متحركةً نحو الله، لا ذاكرةً جامدةً عند الجرح. تتذكر لتشكر، وتتذكر لتتوب، وتتذكر لتعتبر، وتتذكر لتتواضع، وتتذكر لتدعو، وتتذكر لتصبر. أما إذا صار التذكر سببًا لليأس أو الحقد أو السخط أو العجب، فقد احتاج إلى ذكرٍ يطهّره.

والأذكار اليومية، في حقيقتها، ليست مجرد حماية للحاضر، بل إعادة صياغة مستمرة للذاكرة. أذكار الصباح تفتح اليوم على معنى الحفظ والتوكل والحمد.

وأذكار المساء تطوي اليوم على معنى التسليم والاستغفار. والاستغفار يغسل آثار الذنب. والحمد يحفظ آثار النعمة. والتسبيح يطهر آثار سوء الظن. والتكبير يصغر آثار الخوف. والصلاة على النبي ﷺ تصل الذاكرة بمصدر الهداية. وقراءة القرآن تعيد بناء القصة الكبرى التي ينبغي أن يعيش الإنسان داخلها.

ولهذا من عاش بلا ذكر، ترك ذاكرته ليديرها الألم والهوى والشيطان والناس. ومن عاش بالذكر، صار له في داخله ميزانٌ يراجع به ما يتذكر: هل هذا التذكر يقودني إلى الله أم يقطعني عنه؟ هل يجعلني أشكر أم أسخط؟ أتوب أم أيأس؟ أتعلم أم أتحجر؟ أتواضع أم أحتقر نفسي؟ أطلب الحق أم أعبد الانتقام؟

وفي نهاية هذا الفصل نصل إلى قاعدة جامعة:

الذكر لا يمحو الماضي، لكنه يخلّص الذاكرة من طغيانه؛ لا ينكر الجرح، لكنه يمنعه من أن يصير ربَّ الشعور؛ لا يلغي الذنب، لكنه يفتح له باب التوبة؛ لا يطمس الفقد، لكنه يضعه داخل الرجوع إلى الله؛ لا يبدل كل ما وقع، لكنه يبدل معنى ما وقع في القلب، فإذا تطهرت الذاكرة بالذكر صار الماضي معلمًا لا سجنًا، وعبرةً لا لعنة، وشاهدًا على لطف الله لا دليلًا على اليأس.

وهكذا تنكشف آية ﴿**فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ من جهةٍ أخرى:
اذكروني، أطهّر ذاكرتكم من احتكار الألم.
اذكروني، أفتح لكم في الماضي أبواب العبرة والشكر والتوبة.
اذكروني، فلا تجعلوا الجراح تكتب وحدها معنى حياتكم.

اذكروني، أذكركم بفضلي ورحمتي وستري ولطفي، حتى لا تبقى ذاكرتكم مقبرةً للوجع، بل تصير محرابًا للحمد والرجوع.

فالذاكر لا يملك ماضيًا بلا ألم بالضرورة.
لكنه يملك نورًا يمنع الماضي من أن يصير ظلامًا مطلقًا.
ولا ينسى كل ما جرى.
لكنه يتعلم أن يتذكر بالله، لا بالجرح وحده؛
ومن تذكّر بالله، تحولت الذاكرة من عبءٍ يجرّه إلى زادٍ يرشده.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

الذِّكْرُ وَتَرْبِيَةُ اللِّسَان: حِينَ تَصِيرُ الكَلِمَةُ مِفْتَاحًا لِلقَلْب

ليس اللسان في التصور القرآني آلةً صوتيةً محايدة، ولا جارحةً صغيرةً لا خطر لها، بل هو بابٌ من أخطر أبواب القلب؛ يخرج منه ما استقر في الداخل، ويدخل منه ما يعيد تشكيل الداخل من جديد. فالإنسان لا يتكلم فقط لأنه يفكر، بل كثيرًا ما يتشكل تفكيره بما يكرره لسانه؛ فإذا اعتاد الشكوى صار قلبه أسرع إلى رؤية النقص، وإذا اعتاد السخط صار وجدانه مهيأً للاعتراض، وإذا اعتاد الغيبة صار وعيه مسكونًا بعيوب الناس، وإذا اعتاد ذكر الله بدأ القلب يتربى على معاني التعظيم، والحمد، والتسبيح، والاستغفار، والتوكل، والرجاء.

ومن هنا كان الذكر تربيةً للسان كما هو تربيةٌ للقلب. ليس المقصود أن يتحرك اللسان وحده بينما القلب غائبٌ مستغرقٌ في ظلامه، ولكن المقصود أيضًا أن لا نحتقر حركة اللسان؛ لأن اللسان إذا داوم على الخير كان طريقًا إلى إيقاظ القلب، كما أن القلب إذا امتلأ بالخير دفع اللسان إليه. العلاقة بينهما متبادلة: قلبٌ ذاكر يثمر لسانًا ذاكرًا، ولسانٌ يداوم على الذكر يوقظ قلبًا كان نائمًا أو فاترًا.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ الأحزاب: ٤١-٤٢

في هذا الأمر الإلهي إشارة إلى أن الذكر لا ينبغي أن يكون حدثًا نادرًا في حياة المؤمن، بل حضورًا متكررًا، عائدًا، ملازمًا، يطبع اليوم بطابعه. **ذكرًا كثيرًا**؛ لأن الغفلات كثيرة، والمداخل على القلب كثيرة، واللسان إن لم يُشغل بالحق شغلته النفس بما دون الحق. فاللسان لا يبقى فارغًا؛ إما أن يتعود الذكر، أو يتعود اللغو، أو الشكوى، أو التذمر، أو فضول الكلام، أو ما هو أشد من ذلك.

والكثرة هنا ليست مجرد عددٍ منفصلٍ عن المعنى، وإن كان للعدد المشروع موضعه وفضله، بل هي بناء مناخٍ لغويٍّ حول القلب. فالذي يكثر من قول: **الحمد لله**، لا يساوي في بنية شعوره من يكثر من قول: ما أسوأ الحياة. والذي يكثر من قول: **لا حول ولا قوة إلا بالله**، لا يشبه من يكرر: لا أستطيع، لا أقدر، انتهى كل شيء. والذي يكثر من قول: **حسبي الله ونعم الوكيل**، لا يظل قلبه تحت سلطان الخلق كما كان. إن الكلمات المتكررة تصنع طرقًا داخل النفس، وكل طريقٍ يكثر السير فيه يصير أسهل عودةً من غيره.

ومن هنا نفهم خطورة الكلمة. قال الله تعالى: ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ ق: ١٨

هذه الآية تضع اللسان في مقام المسؤولية. ليس في الكلام شيءٌ يتبخر هكذا بلا أثر. كل لفظٍ يدخل في سجلٍّ يعلمه الله، ويكتبه الملكان، ويؤثر في صاحبه وسامعه. وهذا الوعي إذا استقر في القلب جعل الذاكر أكثر حياءً من لسانه؛ كيف يذكر الله بلسانٍ ثم يجعله أداةً للكذب أو الغيبة أو الظلم أو الفحش أو السخرية؟ وكيف يسبّح الله، ثم يطلق الجارحة نفسها في أعراض عباده؟ ليس

الذكر الحقيقي أن تستعير اللسان للحظات الطاعة، ثم تتركه بقية اليوم للهوى، بل أن يبدأ الذكر بتطهير اللسان كله.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**».

هذا الحديث يجعل الكلام داخل دائرة الإيمان بالله واليوم الآخر. ليست المسألة ذوقًا اجتماعيًا فحسب، ولا تهذيبًا أدبيًا مجردًا، بل مسؤولية عقدية وأخروية. من آمن بالله علم أن الله يسمعه، ومن آمن باليوم الآخر علم أن كلمته ستُعرض عليه. فاللسان الذاكر لا يكون كثير الكلام بالضرورة، بل يكون كثير الخير؛ إذا تكلم قال حقًا، أو ذكرًا، أو علمًا، أو إصلاحًا، أو مواساة، أو نصحًا، أو أدبًا، وإذا لم يجد خيرًا صان نفسه بالصمت.

والصمت هنا ليس فراغًا، بل قد يكون ذكرًا خفيًا؛ لأن من ترك كلمةً لا ترضي الله فقد ذكر الله بمراقبته، وإن لم يتحرك لسانه. فالذكر ليس فقط ما نطقت به من تسبيح، بل ما منعك ذكر الله من قوله أيضًا. وقد يكون أعظم أثر للذكر أن لا تقول. أن تمسك لسانك عن غيبةٍ كانت سهلة، وعن ردٍّ جارحٍ كانت نفسك تشتهيه، وعن كلمةٍ باطلةٍ كانت ستمنحك انتصارًا عابرًا. هنا يكون الذكر حارسًا على الباب، لا زينةً معلقةً على الجدار.

ومن بديع القرآن أنه يربط صلاح القول بصلاح العمل. قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ الأحزاب: ٧٠-٧١

تأمل هذا الربط العجيب: **قولًا سديدًا**، ثم **يصلح لكم أعمالكم**. كأن صلاح اللسان بابٌ إلى صلاح العمل كله؛ لأن اللسان ليس منفصلًا عن البنية الداخلية للإنسان، بل هو علامةٌ ومحرّك. والقول السديد هو القول المصيب، المستقيم، المنضبط بالحق، البعيد عن التلاعب والهوى والانحراف. فإذا استقام لسان العبد، استقام كثيرٌ من شأنه؛ لأن الكلمة السديدة تمنع فوضى الداخل من أن تتحول إلى فوضى في الواقع.

والذكر من أعظم ما يدرّب اللسان على السداد؛ لأن من أكثر من ذكر الله تعلم أن للكلمة وزنًا، وأن اللسان خُلق ليكون باب عبودية لا أداة عبث. فإذا قال: **سبحان الله**، تعلّم التنزيه، فلا ينسب إلى الله ما لا يليق. وإذا قال: **الحمد لله**، تعلّم الاعتراف بالفضل، فلا يجعل لسانه لسان جحود. وإذا قال: **أستغفر الله**، تعلّم الاعتراف بالنقص، فلا يجعل لسانه لسان تزكيةٍ دائمة للنفس. وإذا قال: **الله أكبر**، تعلّم أن لا يكبّر ما حقه التصغير، ولا يصغر ما حقه التعظيم.

ومن هنا كان الذكر مدرسةً للمعاني قبل أن يكون ألفاظًا. كل ذكرٍ صحيح يحمل تربيةً مخصوصة للسان والقلب:

سبحان الله تربي اللسان على التنزيه.

الحمد لله تربيه على الشكر.

الله أكبر تربيه على ترتيب المقامات.

لا إله إلا الله تربيه على التوحيد ونفي العبوديات الزائفة.

أستغفر الله تربيه على التواضع والرجوع.

لا حول ولا قوة إلا بالله تربيه على الافتقار.

حسبنا الله ونعم الوكيل تربيه على الثقة والتفويض.

فإذا اعتاد اللسان هذه المعاني، لم يعد الكلام العادي كما كان؛ لأن اللسان الذي ذاق الحمد يستحي من كثرة السخط، واللسان الذي ذاق التسبيح يستحي من سوء الظن، واللسان الذي ذاق الاستغفار يستحي من الكبر، واللسان الذي ذاق التكبير يستحي أن يجعل الخلق أكبر من الله في خطاب القلب.

ولذلك كان من أعظم أبواب الخطر أن ينفصل الذكر عن أخلاق اللسان. قد يسبّح الإنسان كثيرًا، ثم يغتاب كثيرًا، فيبني ويهدم. وقد يستغفر، ثم يظلم بكلماته. وقد يحمد الله، ثم يسخط على أقداره في حديثه. وهذه الازدواجية تكشف أن الذكر لم يبلغ بعد موضع السلطان في اللسان. وليس معنى ذلك أن يترك العبد الذكر لأنه مقصر، بل أن يزيده مع مجاهدة اللسان حتى يصير الذكر مصلحًا لا مجرد عادة.

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

هذا الحديث يضع اللسان قبل اليد؛ لأن اللسان قد يجرح جرحًا أعمق من الأداة، وقد يهدم بيتًا، ويكسر قلبًا، ويفسد علاقة، ويشعل فتنة، ويقتل معنى، دون أن يتحرك صاحبه من مكانه. والذاكر الحق ينبغي أن يكون الناس أكثر سلامةً من لسانه لا أقل؛ لأن ذكر الله إذا لم يجعلك أرحم وأصدق وأنقى قولًا، فأنت محتاجٌ إلى أن تراجع حضور القلب في الذكر.

ومن هنا يكون الذكر تهذيبًا للقوة اللفظية. فبعض الناس يملكون بيانًا، أو سرعة جواب، أو قدرة على الجدل، أو حضورًا في الكلام، فإذا لم يضبط ذلك ذكر الله تحول إلى سلاحٍ للنفس. يصير الكلام وسيلةً للانتصار، لا للحق؛

ولإظهار التفوق، لا للإصلاح؛ ولإحراج الآخر، لا لهدايته. أما الذاكر فيتعلم أن الكلمة أمانة، وأن البلاغة بلا تقوى قد تكون فتنة، وأن أجمل الكلام ما دلّ على الله أو أصلح عباده أو نصر حقًا بلا ظلم.

قال الله تعالى: ﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ البقرة: ٨٣

هذه الآية ليست أدبًا اجتماعيًا فقط، بل عبادة لسانية. **للناس**، لا لمن تحبون فقط، ولا لمن يوافقونكم فقط، ولا لمن تحتاجون إليهم فقط. القول الحسن جزءٌ من أخلاق الذاكر؛ لأن من كان قلبه مع الله لم يجعل لسانه غليظًا بلا حق، ولا جارحًا بلا ضرورة، ولا متكبرًا على الخلق. والقول الحسن لا يعني ترك الصدع بالحق، ولا تمييع الموقف، بل يعني أن يكون الحق نفسه خارجًا من لسانٍ مؤدبٍ بتقوى الله، لا من نفسٍ تريد التشفي.

ومن أعظم ما يربي اللسان على هذا المعنى قول الله لموسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿**فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ طه: ٤٤

إذا كان هذا في خطاب فرعون، فكيف بمن دونه؟ إن لين القول هنا ليس ضعفًا في الحق، بل قوة في الرسالة؛ لأن المقصود ليس انتقام اللسان، بل إيقاظ القلب. والذاكر يتعلم من هذا أن الكلمة ينبغي أن تُختار لا لتفرغ غضب المتكلم فقط، بل لتبلغ مقصد الحق. قد تحتاج الكلمة إلى قوة، نعم، لكن القوة شيء، والفحش شيء آخر؛ والوضوح شيء، والعدوان شيء آخر؛ والغيرة على الحق شيء، واستباحة الخلق باللسان شيء آخر.

ومن هنا كان النبي ﷺ أكمل الناس ذكرًا، وأكملهم لسانًا. كان يذكر الله على كل أحيانه، وكان جوامع الكلم، وكانت كلمته هدايةً ورحمةً وبيانًا. ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا. وهذا يعلّمنا أن الذكر إذا بلغ كماله لم يصنع لسانًا منعزلًا عن الناس، بل لسانًا أرحم بهم، وأصدق معهم، وأحفظ للحق، وأبعد عن اللغو.

ومن أقبح ما يفسد اللسان الغيبة؛ لأنها تجعل اللسان مأوى لذكر الناس بما يكرهون، بدل أن يكون مأوى لذكر الله. قال تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾ الحجرات: ١٢

الصورة القرآنية هنا شديدة؛ لأنها تريد أن توقظ حساسية القلب تجاه جريمةٍ يستخف بها الناس. الغيبة ليست تسلية كلامية، بل أكلٌ معنويٌّ للحم الغائب، وهو ميتٌ من جهة عجزه عن الدفاع عن نفسه في المجلس. واللسان الذي يغتاب كثيرًا لا يستطيع أن يحتفظ بنقاء الذكر طويلًا؛ لأن قلبه صار مشغولًا بتتبع عيوب الخلق بدل عيوب نفسه، وبذكر الناس بما يسوء بدل ذكر الله بما يزكيه.

والدواء هنا ليس فقط أن تقول: لن أغتاب، بل أن تملأ اللسان بما هو أزكى. فالنفس إذا اعتادت مجالس الكلام عن الناس احتاجت إلى بديلٍ يملأ الفراغ: ذكر، علم، نصيحة، دعاء، صمت نافع، قراءة قرآن، حديث في الخير. ولهذا كان الذكر تحريرًا للسان من إدمان الاشتغال بالخلق. من أكثر ذكر الله قلّت حاجته إلى تفتيش الناس، ومن أكثر استغفار نفسه انكسر فضوله في عيوب غيره.

ومن أمراض اللسان كذلك كثرة الشكوى إلى الخلق على وجه السخط. وليس المقصود منع الإنسان من طلب المساعدة، أو بثّ همّه لمن يعينه، أو الشكوى المشروعة، فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿**إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ يوسف: ٨٦

بل المقصود أن يتحول اللسان إلى منبر دائم للسخط، لا يرى نعمة، ولا يذكر فضلًا، ولا يحسن إلا عدّ المصائب. الشكوى إلى الله عبودية، والشكوى التي تطلب النصح والعون قد تكون مشروعة، أما الشكوى التي تغذي السخط وتبث اليأس وتطمس النعمة فهي مرض. والذكر يعيد توجيه الشكوى: بدل أن تظل تدور حول الناس، اصعد بها إلى الله. قل: يا رب، إني ضعيف فقوّني، حزين فجبرني، محتاج فارزقني، خائف فآمني، مذنب فاغفر لي.

وهنا يظهر الفرق بين لسانٍ شاكٍ ولسانٍ داعٍ. الشكوى الغافلة تزيد الثقل؛ لأنها تعيد المشكلة دون أن تفتح بابًا أعلى. أما الدعاء فيحوّل الهمّ إلى عبودية. ليس معنى ذلك أن الدعاء يزيل الوجع فورًا دائمًا، ولكنه يغير اتجاهه. الوجع حين يبقى داخل النفس يتخمر قلقًا، وحين يخرج إلى الناس بلا ضابط قد يصير تذمرًا، أما حين يصعد إلى الله يصير افتقارًا.

ومن أعظم ما يطهر اللسان من القسوة كثرة الصلاة على النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ الأحزاب: ٥٦

الصلاة على النبي ﷺ ليست ذكرًا منفصلًا عن تهذيب اللسان، بل هي وصلٌ للسان بمقام النبوة والرحمة والهداية. من أكثر الصلاة عليه ﷺ ينبغي أن

يستحي أن يكون لسانه بعيدًا عن سنته في الرحمة والصدق والحكمة. إنها تذكّر اللسان بأن أشرف الكلام ما اتصل بالوحي، وأن أعظم البلاغ ما هدى إلى الله، وأن الفصاحة التي لا تحمل خلقًا قد تكون حجةً على صاحبها لا له.

ومن الذكر الذي يعيد تهذيب اللسان كذلك تلاوة القرآن؛ لأن القرآن يربي اللسان على أعلى مراتب القول. قال تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا**﴾ المزمل: ٤

الترتيل ليس مجرد تحسين صوت، بل أدبٌ مع الكلمة الإلهية: تؤدَّى بتؤدة، وتُعطى حقها، ويقف القلب عند معانيها. واللسان الذي يتدرب على القرآن يتدرب على الهيبة، وعلى الدقة، وعلى الطهارة، وعلى أن الكلمة ليست شيئًا رخيصًا. فإذا طال عهد اللسان بالقرآن، صار أشد نفورًا من الكلام الهابط، لأن من ذاق رفعة الوحي استثقل سفول اللغو.

ولهذا قال الله تعالى في وصف عباده: ﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا**﴾ الفرقان: ٧٢

الذاكر لا يقيم في اللغو؛ قد يمرّ به في الحياة، يسمعه، يراه، يُدعى إليه، لكنه يمر كريمًا، لا يسلم قلبه له، ولا يجعل لسانه جزءًا من فوضاه. والكرامة هنا ليست تكبرًا على الناس، بل صيانةٌ للنفس عما يبددها. فاللغو يحتل اللسان، ثم يحتل القلب، ثم يضيع العمر. والذكر يعيد للوقت هيبته؛ لأن اللسان إذا اشتغل بذكر الله عرف أن العمر لا يحتمل أن يذهب كله في كلامٍ لا يقرّب إلى الله ولا يصلح دنيا.

ومن أدق أبواب تربية اللسان أن يتعلم العبد متى يتكلم ومتى يسكت. فالذكر لا يجعل الإنسان كثير الكلام دائمًا؛ بل يجعله حاضر الميزان. قد يكون الذكر كلمة، وقد يكون الصمت ذكرًا إذا كان الصمت طاعة. وقد يكون البيان واجبًا إذا سكت الناس عن الحق، وقد يكون السكوت واجبًا إذا كان الكلام فتنة. ومن هنا يحتاج اللسان إلى تقوى، لا إلى طلاقة فقط.

قال تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ النساء: ١١٤

هذه الآية تكشف أن كثيرًا من الكلام الخفي بين الناس لا خير فيه، إلا ما اتصل بالمعروف والإصلاح والصدقة وابتغاء مرضاة الله. فاللسان لا يزكو بمجرد الكلام الديني العام، بل يزكو بالقصد. قد يتكلم الإنسان في الخير طلبًا للظهور، فينقص خيره، وقد يسكت عن شهرةٍ ابتغاء مرضاة الله، فيعظم صمته. مدار اللسان في النهاية على: ماذا تقول؟ ولماذا تقول؟ ولمن تقول؟ وبأي قلبٍ تقول؟

والذكر يربّي النية في القول. حين يكثر العبد من ذكر الله، يصير أكثر قدرة على سؤال نفسه قبل الكلام: أهذا لله أم لنفسي؟ أهو نصح أم تشفٍّ؟ أهو بيان أم فضيحة؟ أهو إصلاح أم انتصار للذات؟ أهو حق أم فضول؟ أهو لازم أم يمكن تركه؟ هذه الأسئلة لا تولد غالبًا في لسان غافل، بل في قلبٍ تذكر أن الله يسمع.

ومن أعظم ما يختم به المؤمن كلامه الاستغفار؛ لأن اللسان مهما اجتهد عرضة للزلل. ولذلك شُرع في ختام المجالس دعاء كفارة المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**». هذا الدعاء عظيم في تربية اللسان؛ يبدأ بالتسبيح والحمد والتوحيد، ثم الاستغفار والتوبة. كأن المؤمن يقول بعد المجلس: يا رب، إن كان في كلامي لغوٌ أو خطأٌ أو غفلةٌ أو تعدٍّ، فأنا أرجع إليك. إنه لا يخرج من كلامه مغترًا بسلامته، بل مستغفرًا من نقصه. وهذا الأدب لو وُجد في مجالسنا لتطهرت كثيرٌ من آثار الكلام.

ومن هنا يظهر أن الذكر يربي اللسان على ثلاثة أمور كبرى: **الامتلاء بالحق**، و **الصيانة عن الباطل**، و **الرجوع بعد الزلل**.

يمتلئ بالحق حين يكثر من التسبيح والحمد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن والدعاء.

ويُصان عن الباطل حين يمنعه ذكر الله من الغيبة والكذب والفحش واللغو والسخرية.

ويرجع بعد الزلل حين يستغفر ويتوب ويصلح ما أمكن.

وهذه الثلاثة هي معالم اللسان الذاكر. ليس لسانًا معصومًا، ولكنه لسانٌ له طريق عودة. وليس لسانًا صامتًا دائمًا، ولكنه لسانٌ يعرف قدر الكلمة. وليس لسانًا خاليًا من الخطأ، ولكنه لا يقيم في الخطأ مطمئنًا. كلما زلّ ذكر. وكلما غفل استغفر. وكلما تكلم راقب. وكلما صمت احتسب.

ومن أرفع ما يبلغه اللسان أن تصير كلماته أبواب نورٍ لغيره. فالذكر لا يبقى أثره في صاحبه وحده، بل قد يتحول اللسان الذاكر إلى سبب تذكيرٍ للناس. كلمة صادقة قد تفتح قلبًا، تسبيحة في مجلس قد تغيّر مناخ المجلس، دعاء لأخيك قد يجبره، نصيحة رقيقة قد ترده إلى الله، آية تتلوها في وقتها قد تنقذ إنسانًا من ظلمة. فاللسان الذي كان يمكن أن يكون أداة هدم، يصير بالذكر أداة حياة.

وفي الحديث الصحيح: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**». تأمل هذه المفاضلة النبوية: كلماتٌ يسيرةٌ على اللسان أحب من الدنيا وما أضاءت عليه الشمس. لماذا؟ لأن الدنيا كلها تزول، أما هذه الكلمات إذا صدقت واحتسبت بقيت عند الله. فالذاكر يعيش بهذا الميزان: ليست قيمة الكلام بطوله، ولا بانتشاره، ولا بتصفيق الناس له، بل بصدقه وموضعه عند الله. كلمة ذكرٍ قد تكون أرجح من صفحات لغو، ولحظة استغفارٍ قد تكون أعظم من جدلٍ طويل، وتسبيحةٌ صادقةٌ قد تكون أثقل من كلامٍ كثيرٍ لا روح فيه.

وهذا لا يعني التقليل من شأن الكتابة أو البيان أو الفكر، بل يضعها في ميزانها: أعظم الكلام ما كان موصولًا بالله، نافعًا للخلق، صادقًا في النية، محروسًا من الكبر، منضبطًا بالحق. والكاتب الذاكر، والخطيب الذاكر، والمعلّم الذاكر، لا يكتب ولا يتكلم ليثبت ذاته فقط، بل ليؤدي أمانة الكلمة. فإذا كان الكلام عن الله ودينه وكتابه، كان اللسان أحوج إلى الذكر؛ لأن الكلام في المقامات العالية بلسانٍ غافل خطرٌ على صاحبه.

ومن هنا ينبغي أن يسبق الذكر الكلام، وأن يصاحبه، وأن يتبعه. يسبقه بالاستعانة: يا رب، افتح عليّ بالحق. ويصاحبه بالمراقبة: يا رب، سلّم لساني من الزلل. ويتبعه بالاستغفار: يا رب، اغفر تقصيري فيما قلت. هكذا لا تتحول الكلمة إلى صنمٍ للكاتب أو الخطيب أو الواعظ، بل تبقى عبودية.

وفي نهاية هذا الفصل نصل إلى قاعدةٍ جامعة:

الذكر لا يطهّر القلب وحده، بل يطهّر اللسان الذي هو ترجمان القلب وبابه؛ فإذا اعتاد اللسان ذكر الله، ضاق باللغو، واستحيا من الفحش، وخفّت عليه الشكوى إلى الخلق، وثقل عليه الكذب والغيبة، وصارت الكلمة عنده أمانةً لا نزوة، وعبادةً لا عبثًا.

وهكذا تتجلى آية ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ في مقام اللسان:
اذكروني بألسنتكم، لأطهّر بها قلوبكم.
اذكروني، حتى لا تصير ألسنتكم مرايا لغفلتكم وشهواتكم وغضبكم.
اذكروني، أفتح لكم من بركة الكلمة ما يردّكم إليّ، ويصلح ما بينكم، ويجعل اللسان الذي قد يهدم، بابًا يبني ويهدي ويستغفر ويسبّح.

فاللسان الذاكر ليس مجرد جارحةٍ تتحرك.
إنه محرابٌ صغيرٌ في وجه الضجيج.
وكلما قال: **سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**، كان يستردّ شيئًا من طهارته الأولى، ويعلن أن الإنسان لم يُخلق ليكون صدى للعالم، بل ليكون عبدًا يذكر ربّه، فيصير كلامه أصفى، وصمته أهدى، وحضوره أقرب إلى نور العبودية.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

الذِّكْرُ وَتَرْبِيَةُ الوَقْت: حِينَ يَصِيرُ العُمْرُ مَجَالًا لِلْحُضُورِ لَا مَسَاحَةً لِلغَفْلَة

ليس الوقت في حياة الإنسان وعاءً محايدًا تُلقى فيه الأعمال كيفما اتفق، بل هو مادة العمر نفسها، وهو الميدان الذي تتكشف فيه حقيقة العبد: ماذا يطلب؟ وما الذي يتكرر في يومه؟ وأي المعاني تسكن صباحه ومساءه؟ وأين يذهب قلبه حين يستيقظ؟ وبماذا يختم نهاره حين ينام؟ فالإنسان لا يُعرَف فقط بمواقفه الكبرى، بل يُعرَف كذلك بما يملأ به الساعات الصغيرة التي تبدو عابرة، وهي في الحقيقة تصنع وجهته وتراكم مصيره.

ومن هنا كان الذكر تربيةً للوقت، لا تربيةً للقلب وحده؛ لأنه يعيد توزيع اليوم حول الله، ويمنع العمر من أن يتسرب في فراغٍ لا نور فيه. فالوقت إذا لم يُربَ بالذكر صار نهبًا للعادات، والضجيج، والشرود، والقلق، والمقارنات، وفضول النظر والكلام؛ حتى يمرّ اليوم كاملًا ولا يدري الإنسان أين ذهب قلبه فيه، ولا بأي معنى عاشه. فإذا دخل الذكر، لم يلغِ أعمال اليوم، لكنه أعطاها محورًا، وفتح في أطراف الزمن أبوابًا إلى الله، وجعل الصباح ابتداءً بالاستعانة، والمساء عودةً بالمحاسبة، وما بينهما مجالًا للسعي المحروس بالذكر.

قال الله تعالى: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ**﴾ طه: ١٣٠

هذه الآية لا تضع الذكر في زمنٍ عارضٍ من اليوم، بل توزعه على مفاصل الزمن: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل، وأطراف النهار. وكأن الوحي يريد أن يمنع اليوم من أن يتحول إلى كتلةٍ صماء من الاشتغال الأرضي، فيفتح فيه نوافذ متكررة إلى السماء. فقبل طلوع الشمس يتلقى القلب يومه بالتسبيح والحمد، وقبل الغروب يراجع القلب ما حمله النهار من غبار، ومن آناء الليل يتخفف العبد من ضجيج العالم، وفي أطراف النهار تتجدد الصلة حتى لا يطول الغياب.

وتأمل خاتمة الآية: ﴿**لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ**﴾.
فالرضا هنا ليس حالةً تُطلب من فراغ، بل ثمرةٌ لزمنٍ معمورٍ بالذكر. من أراد أن يرضى وقلبه متروكٌ طوال اليوم لأسواق القلق والشكوى واللغو، فقد طلب الثمرة دون أصلها. الرضا يحتاج إلى تربية يومية؛ إلى تسبيحٍ قبل أن يبتلعك النهار، وإلى حمدٍ قبل أن تتضخم فيك النواقص، وإلى صلاةٍ تعيدك إلى مركزك، وإلى أذكارٍ تحفظك من تآكل الداخل. ليس الرضا قرارًا عقليًا مفاجئًا فقط، بل هو ثمرة صحبة طويلة مع الله في تفاصيل الوقت.

ولهذا كان للذكر في الصباح والمساء شأنٌ عظيم؛ لأن هذين الوقتين حدّان رمزيان لليوم: الصباح ولادة اليوم، والمساء طيّه. فمن بدأ يومه بذكر الله، لم يدخل إلى الحياة عاري القلب؛ ومن ختمه بذكر الله، لم يسلّم نومه للفوضى. أذكار الصباح ليست كلماتٍ على هامش الحركة، بل إعلان عبودية عند افتتاح النهار: يا رب، بك أصبحنا، وبك نحيا، وبك نمضي، وعليك نتوكل. وأذكار المساء ليست خاتمة صوتية، بل عودةٌ إلى الله بعد يومٍ مسّه من النقص والغفلة والاختلاط ما مسّه.

قال الله تعالى: ﴿**وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ**﴾ آل عمران: ٤١

العشيّ والإبكار طرفا الزمن اليومي، والقرآن حين يربط الذكر بهما يعلّم القلب أن لا يترك بداياته ونهاياته بلا صلة. فالبداية إذا خلت من الذكر دخل الإنسان يومه متروكًا لما يطرأ، والنهاية إذا خلت من الذكر نام وفي داخله بقايا النهار غير مغسولة: كلمةٌ قالها، أو خوفٌ حمله، أو ذنبٌ وقع فيه، أو نعمةٌ لم يشكرها، أو قلقٌ لم يسلّمه لله. أما الذاكر، فيتلقى اليوم من الله، ويرده إلى الله.

ومن عظمة الإسلام أنه جعل الصلاة نفسها تقسم اليوم على إيقاع الذكر. ليست الصلاة حدثًا واحدًا في زاوية العمر، بل مواعيد متكررة تقطع استغراق الإنسان في الدنيا، كما لو أن الوحي يقول له: لا تطل الغياب. قد تعمل، وتبيع، وتكتب، وتتعلم، وتخدم أهلك، وتسعى في رزقك، لكن لا تجعل السعي متصلًا إلى درجة القطيعة. قف عند الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء؛ قف لتتذكر أنك عبد قبل أن تكون عاملًا، وأن لك ربًا قبل أن يكون لك برنامج، وأن الوقت ليس ملكًا حرًا لهواك، بل أمانةٌ تُرفع إلى الله.

قال تعالى: ﴿**إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ**﴾ طه: ١٤

قوله: ﴿**لِذِكْرِيٓ**﴾ يجعل الصلاة قلب هندسة الوقت. فالعبد قد يضيع في امتداد الساعات، فتأتي الصلاة لتعيده. قد ينغمس في الحسابات، فتأتي الصلاة لتقول له: الله أكبر. قد ينسى الآخرة في زحام العمل، فتأتي الصلاة لتقرأ في قلبه:

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ. قد يشعر بالاكتفاء، فتقول له الفاتحة: **إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**. قد تشتت وجهته، فيقول: **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ**.

وهكذا لا تكون الصلوات الخمس تكرارًا زمنيًا، بل إعادة تشكيلٍ للوقت كله. كل صلاةٍ كأنها تصحيح لمسار الساعة التي قبلها، واستعداد للساعة التي بعدها. ومن ضيّع الصلاة، لم يضيع عبادةً فحسب، بل ضيّع ميزان الوقت؛ لأن اليوم إذا خلا من هذه الأعمدة صار كتلةً سائبةً تأخذها الدنيا كيف شاءت.

وفي الحديث الصحيح، شبّه النبي ﷺ الصلوات الخمس بالنهر الذي يغتسل منه الإنسان كل يوم خمس مرات، فقال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**».

وهذا التشبيه لا يقتصر على محو الخطايا بمعناها الظاهر، بل يفتح لنا معنىً بديعًا في علاقة الصلاة بالوقت؛ كأن اليوم بطرقه وأسواقه وأحاديثه واشتغالاته يعلق بالعبد منه غبار، فتأتي الصلاة نهرًا متكررًا لا يترك الدرن يتراكم حتى يصير قسوةً. فالخطورة ليست في غبار يومٍ واحد فقط، بل في تراكم الأيام بلا غسل. والذكر المتكرر يقطع هذا التراكم؛ يغسل القلب قبل أن يجف عليه غبار الغفلة.

ومن هنا نفهم لماذا كان الشيطان حريصًا على سرقة الوقت من الذكر، لا بالمعاصي الكبرى فقط، بل بالانشغال المباح إذا تمدد حتى ابتلع القلب. فقد لا يمنعك من العمل الصالح مباشرة، لكنه يملأ يومك بالمشتتات، ويؤجل وردك، ويخفف صلاتك، ويجعلك تقول: بعد قليل، حتى يمرّ اليوم وتنام وقلبك لم يأخذ

غذاءه. وهذا من أخفى أبواب الخسارة: أن لا يسقط الإنسان بسقطةٍ صاخبة، بل يتآكل ببطءٍ من كثرة التأجيل.

قال الله تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ المؤمنون: ٩٩-١٠٠

هذه الآية تكشف حقيقة الوقت حين يُرى من حافة الموت. هناك لا يطلب الإنسان زيادة مال، ولا اتساع شهرة، ولا فرصةً أخرى للهو، بل يقول: **لعلّي أعمل صالحًا**. عند الموت ينكشف أن أثمن ما كان في اليد هو الوقت الذي كان يمكن أن يكون عبادةً وذكرًا وصلاحًا. والذكر اليومي يعلّم الإنسان هذا قبل أن يتعلمه في ساعة لا عودة فيها. كأن الذاكر يستبق ندم الموت، فيجعل من وقته مجالًا للرجوع قبل أن ينغلق الباب.

والوقت في القرآن ليس كميةً فقط، بل شاهد. أقسم الله بالعصر: ﴿**وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ**﴾ العصر: ١-٣

العصر هو الزمن، أو جزءٌ شريف منه، والقسم به يضع الإنسان أمام حقيقة مرعبة: الأصل في الإنسان الخسران إلا من استثناه الله بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر. فالوقت ليس مجرد مرور، بل إما أن يكون رصيد نجاة أو ميدان خسارة. كل ساعةٍ تمضي تحمل شيئًا من الإنسان معها؛ فإن لم يملأها بإيمانٍ وعملٍ وحقٍ وصبر، صارت جزءًا من خسارته. والذكر يدخل في قلب هذا الاستثناء؛ لأنه يغذي الإيمان، ويعين على العمل، ويثبت في الحق، ويقوي على الصبر.

ومن هنا يكون الذاكر أفقه الناس بقيمة اللحظة الصغيرة. ليس لأنه يحول حياته إلى توترٍ دائمٍ في عدّ الأنفاس، بل لأنه يعلم أن اللحظة قد تحمل تسبيحةً باقية، واستغفارًا يمحو، وصلاةً ترفع، ودعاءً يفتح، وكلمة خيرٍ تنقذ. وقد قال النبي ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

تأمل: خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان. هذا يعني أن من رحمة الله أن جعل في اللحظات القصيرة أعمالًا عظيمة. ليست كل أبواب الفضل تحتاج إلى فراغٍ طويل أو قدرةٍ ضخمة؛ أحيانًا يفتح الله للعبد بابًا إلى الميزان بكلمتين، إن صدقتا واحتسبتا.

وهذا يعيد تعريف الوقت الضائع. كم ينتظر الإنسان في طريق، أو بين عملين، أو في لحظة سكون، فيملأها بالشرود أو التصفح أو القلق، مع أنها قابلة أن تصير موضع ذكر. الذكر يحوّل الفواصل إلى أبواب. لا يشترط أن تكون دائمًا في مجلسٍ طويل، بل يمكن أن يكون لك من كل فراغٍ الصغير نصيب: تسبيحة، تحميدة، تهليلة، استغفار، صلاة على النبي ﷺ، دعاء. ومع الزمن، تصبح هذه الفواصل نهرًا خفيًا يغذي القلب.

لكن ينبغي أن نفهم أن تربية الوقت بالذكر ليست مجرد تكثير ألفاظٍ بلا وعي، بل إقامة علاقة بين الزمن والمعنى. ليس المطلوب أن يتحول الإنسان إلى آلة تردد، بل أن يصير وقته ذاكرًا: يعمل وفي قلبه مراقبة، يستريح وفي قلبه شكر، يأكل وفي قلبه حمد، ينام وفي قلبه تسليم، يستيقظ وفي قلبه بعثٌ صغير إلى يوم جديد، يلقى الناس وفي قلبه تقوى، يخرج ويدخل وفي قلبه استعانة.

وقد كان من هدي النبي ﷺ أن يذكر الله في أحوال اليوم المختلفة؛ عند النوم والاستيقاظ، وعند الدخول والخروج، وعند الطعام، وعند السفر، وعند رؤية ما يحب وما يكره. وهذا ليس توسعًا شكليًا في الألفاظ، بل تحويل الحياة كلها إلى مجال صلة. إن الوحي لا يريد للإنسان أن يعيش لحظاتٍ دينيةً محدودةً ثم يترك بقية اليوم للغفلة، بل يريد أن تتسلل العبودية إلى تفاصيله، حتى لا يكون في الحياة موضعٌ معزولٌ عن الله.

ومن هنا نفهم قيمة ذكر النوم والاستيقاظ. النوم موتٌ صغير، والاستيقاظ بعثٌ صغير. ولذلك كان من الدعاء عند الاستيقاظ: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**». هذا الذكر يعيد تعريف الصباح؛ ليس مجرد عودة إلى الأعمال، بل حياةٌ بعد موتٍ صغير، وتذكيرٌ بالنشور الأكبر. الإنسان الغافل يستيقظ كأن اليوم حقٌّ مضمون، أما الذاكر يستيقظ حامدًا، لأنه يعلم أن عودته إلى الوعي نعمة، وأن كل صباح فرصة مؤجلة من أجله.

وعند النوم يقول المسلم من الأذكار ما يسلّم به روحه إلى الله. وهذا يجعل آخر الوعي ذكرًا، لا قلقًا. كم من الناس ينامون على خوفٍ أو حقدٍ أو صورٍ مبعثرة، ثم يستيقظون وقد زاد الداخل اضطرابًا. أما الذاكر فيحاول أن يختم يومه بالتسبيح، والاستغفار، وآية الكرسي، والمعوذات، والتسليم لله. فإذا نام، نام وهو يعلم أنه لا يحرس نفسه بنفسه، وأن نومه ليس غيابًا عن علم الله وحفظه. وهذا من أرقى صور تربية الوقت: أن لا تترك آخر بابٍ من اليوم للغفلة.

والليل في القرآن مقامٌ خاص. قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾ الإسراء: ٧٩

ليس كل أحدٍ يقدر على طول القيام، وليس المطلوب أن يحمل الإنسان نفسه ما لا يطيق، لكن في الليل سرًّا لا ينبغي أن يجهله الذاكر. شيءٌ من خلوته، ولو قليلًا، يفتح في القلب بابًا لا يفتحه ضجيج النهار. ركعتان، دعاء، استغفار في السحر، قراءة يسيرة، دمعة لا يراها أحد. هذه اللحظات قد تكون في ظاهرها قليلة، لكنها تُحدث في العمر معنىً عظيمًا؛ لأنها تقول للوقت: لست كله للدنيا، فيك نصيبٌ خفيٌّ لله.

قال تعالى في وصف المتقين: ﴿**كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ**﴾ الذاريات: ١٧-١٨

الاستغفار في السحر ليس مجرد توقيت، بل مقام. في السحر يهدأ العالم، وتخفّ العيون، ويصفو العبد مع ربه. ومن عجيب الآية أنها لم تقل: وبالأسحار هم يفتخرون بقيامهم، بل **يستغفرون**. بعد القيام والطاعة، يستغفرون. كأن الزمن الشريف لا يزيدهم غرورًا، بل يزيدهم معرفةً بالنقص. وهذه تربية عظيمة للذاكر: لا تجعل وقت العبادة مادةً للعجب، بل اجعله بابًا للاستغفار؛ لأن من عرف الله علم أن طاعته مهما عظمت محتاجةٌ إلى قبولٍ ورحمة.

والاستغفار في السحر يطهر ما علق باليوم والليل. إن الإنسان يحمل أخطاءً لا يشعر بها، ونقصًا في النية، وغفلاتٍ صغيرةً تتراكم. فإذا كان له وقتٌ

يرجع فيه ويقول: أستغفر الله، فقد جعل في زمنه محطة تطهير. أما من لا يستغفر، فإنه يترك غبار الأيام يتراكم على قلبه حتى يصير القليل كثيرًا.

ومن هنا كان دوام الذكر أهم من فوراته. قد يندفع الإنسان أيامًا، ثم ينقطع؛ وقد يطيل ساعةً، ثم يهجر طويلًا. لكن القلب لا يُبنى غالبًا بالاندفاعات وحدها، بل بالمداومة. قال النبي ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**». هذا الحديث يعلّمنا هندسة الوقت الإيمانية: القليل الدائم يربّي القلب أكثر من الكثير المنقطع. وردٌ يسيرٌ كل صباح ومساء، ركعتان محافظ عليهما، استغفار يومي، صفحات من القرآن، صلاة على النبي ﷺ، تسبيح بعد الصلاة؛ هذه الأعمال إذا داوم عليها العبد صارت في وقته أوتادًا تثبته. أما من جعل علاقته بالذكر رهينة المزاج، ضعف عند أول فتور.

والفتور نفسه جزءٌ من طبيعة الإنسان، وليس كل فتورٍ سقوطًا، لكن الخطر أن يتحول الفتور إلى انقطاع. الذكر الدائم ولو قليلًا يحفظ الحبل. قد لا تجد كل يوم الخشوع نفسه، ولا اللذة نفسها، ولا الصفاء نفسه، لكنك إذا بقيت على الباب، فأنت في خير. وبعض الأيام يكون مجرد الاستمرار عبادةً عظيمة؛ لأن النفس لا تريد، واللسان ثقيل، والقلب منشغل، ومع ذلك تقول: سبحان الله، الحمد لله، أستغفر الله. هذا ذكر صدقٍ لا ينبغي احتقاره.

ومن تربية الوقت بالذكر أن يعرف الإنسان أوقات الغفلة العامة فيخالفها باليقظة. فإذا غفل الناس في الأسواق، ذكر الله. وإذا انشغلوا بالمظاهر، حمد الله وشكره. وإذا دخل مجلسًا كثر فيه اللغو، حفظ لسانه. وإذا خلا به هاتفه أو

شاشته، راقب الله. وإذا انشغل العالم بالضجيج، جعل لنفسه نصيبًا من الصمت والذكر. فالذاكر ليس تابعًا لمناخ الغفلة العام، بل يحمل داخله مناخًا آخر.

قال الله تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ الجمعة: ١٠

هذه الآية بديعةٌ في الجمع بين الانتشار في الأرض وابتغاء الرزق وكثرة الذكر. فالذكر ليس حبيس المسجد، ولا مضادًا للعمل. بعد الصلاة ينتشر المؤمنون في الأرض، يطلبون فضل الله، لكنهم لا يتركون الذكر خلفهم في المسجد: **واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون**. فالفلاح ليس في الصلاة وحدها بمعزلٍ عن السوق، ولا في السوق بمعزلٍ عن الصلاة، بل في قلبٍ يحمل ذكر الله وهو يتحرك في الحياة.

وهذا يعلّمنا أن تربية الوقت لا تعني إلغاء الأعمال الدنيوية، بل إدخالها في نظام العبودية. العمل إذا صحّت نيته وضبطته الشريعة وصحبه ذكر الله صار مجالًا للقرب. والكسب إذا كان حلالًا وصحبه توكل وشكر صار عبادةً بالمعنى الواسع. ورعاية الأهل، وطلب العلم، وخدمة الناس، وإتقان الصنعة؛ كلها يمكن أن تكون أوقاتًا عامرةً إذا لم تنفصل عن الله. فالذاكر لا يعيش تقسيمًا فقيرًا بين وقتٍ لله ووقتٍ بلا الله، بل يسعى أن يكون كل وقته تحت نظر العبودية، وإن اختلفت صور الأعمال.

ومع ذلك يبقى للذكر المخصوص حقه، فلا يصح أن يقول الإنسان: عملي ذكر، ثم يهجر الصلاة والورد والتسبيح. هذا تلبيس. العمل الصالح قد يكون عبادة، لكنه لا يغني عن غذاء القلب المباشر. كما أن الطعام النافع لا يغني

عن الماء، فكذلك أعمال الحياة لا تغني عن ذكرٍ صريحٍ يوقظ القلب. والكمال أن يجمع العبد بين ذكرٍ مخصوصٍ يحرس قلبه، وعملٍ دنيويٍّ صالحٍ تحرسه النية والذكر.

ومن تربية الوقت بالذكر أن يتعلم الإنسان سرعة الرجوع. ليس المطلوب أن لا يغفل أبدًا، فهذا فوق طاقة أكثر الناس، وإنما المطلوب أن لا تطول الغفلة. إذا شرد، عاد. إذا أذنب، استغفر. إذا قسا، قرأ. إذا اضطرب، دعا. إذا اغتر، سبّح. إذا ضاق، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. هذه السرعة في الرجوع هي علامة حياة. فالقلب الحيّ لا يمنع كل غبار، لكنه لا يسمح له أن يستقر.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ الأعراف: ٢٠١

هذه الآية من أدق آيات اليقظة. المتقون قد يمسهم طائف من الشيطان، لكن الفرق أنهم **تذكروا**، فإذا هم **مبصرون**. الذكر هنا يعيد البصر بعد غشاوة الطائف. فالعبد لا يملك دائمًا أن يمنع الخاطر الأول، ولا المسّ العابر، لكنه يملك أن يتذكر، وأن لا يتبع، وأن لا يستسلم. وبقدر سرعة التذكر تكون سرعة النجاة. وهذا معنى عظيم في تربية الوقت: لا تسمح للغفلة أن تستوطن؛ اجعل بينها وبينك ذكرًا يردك.

ومن هنا يكون الذكر حراسةً للّحظة قبل أن تتحول إلى عادة. الذنب يبدأ أحيانًا بلحظة، فإن لم يقطعها الذكر صارت تكرارًا، ثم عادة، ثم هويةً مظلمة. والقلق يبدأ بخاطر، فإن لم يرده التوكل صار دوامة. والسخط يبدأ بجملة، فإن لم

يرده الحمد صار مزاجًا. والكبر يبدأ بإعجاب، فإن لم يرده الاستغفار صار طبعًا. فالذكر يتدخل مبكرًا، قبل أن يكبر المرض. إنه طبٌّ وقائي للوقت.

وفي مقابل ذلك، الذكر يصنع عادات نورانية. يبدأ بتسبيحةٍ متكلفة، ثم تصير مألوفة، ثم محبوبة، ثم محتاجًا إليها. يبدأ ورد الصباح بثقل، ثم يصير افتتاحًا لا يطيب اليوم بدونه. يبدأ الاستغفار عادة، ثم يفتح الله به حياءً ودمعةً وبصيرة. يبدأ القرآن صفحاتٍ معدودة، ثم يصير رفيقًا للروح. الوقت يتربى بالتكرار، والإنسان ابن ما يداوم عليه.

ولذلك ينبغي للذاكر أن يكون له نظامٌ لا يتركه للفوضى. ليس النظام تعقيدًا، بل رحمة. ورد صباح ومساء، تسبيح بعد الصلوات، نصيب من القرآن، استغفار، صلاة على النبي ﷺ، لحظة دعاء في السجود، ذكر قبل النوم. هذه الأعمدة لا تُثقِل الحياة، بل تحفظها. ومن لم يجعل للذكر وقتًا، ابتلعته الأوقات. ومن لم يحرس قلبه بمواعيد ثابتة، سرقته الطوارئ.

ومع ذلك يجب أن يبقى النظام خادمًا للروح لا قاتلًا لها. فلا يتحول الورد إلى مجرد إنجازٍ عددي بلا حضور، ولا تتحول المحافظة إلى عجب، ولا يتحول التقصير العارض إلى يأس. المقصود أن يبقى القلب على الطريق. إن فاتك ورد، فارجع. إن قصّرت، فاستغفر. إن ضعفت، فخفف ولا تقطع. إن فتح الله لك، فاشكر ولا تغتر. الذكر ليس مشروعًا لإثبات الكمال، بل طريقٌ لتجديد الفقر إلى الله.

ومن بديع الذكر أنه يبارك الوقت. والبركة ليست بالضرورة أن تزيد الساعات عددًا، بل أن يزداد فيها النفع والمعنى. قد يعيش إنسانٌ يومًا طويلًا بلا ذكر

فيشعر في نهايته أنه ضائع، وقد يعيش آخر يومًا مزدحمًا، لكن فيه صلاةً خاشعة، وذكرًا صادقًا، وقرآنًا، وعملًا صالحًا، فيشعر أن يومه كان حيًا. الوقت لا يقاس بما امتلأ به من الحركة فقط، بل بما امتلأ به من الحضور.

والحضور هو لبّ الذكر. أن تكون حاضرًا مع الله في زمنٍ يريد أن يسرق حضورك. أن لا يعيش جسدك في اليوم وقلبك في ألف جهة. أن تعود إلى الله كلما أخذتك الأطراف. أن تجعل من اللحظة بابًا لا جدارًا. فالذكر يعلّم الإنسان أن كل وقتٍ يمكن أن يكون طريقًا إلى الله: وقت العافية بالشكر، ووقت البلاء بالصبر، ووقت الذنب بالتوبة، ووقت الخوف بالتوكل، ووقت النعمة بالحمد، ووقت العجز بالدعاء.

وفي نهاية هذا الفصل نصل إلى قاعدةٍ جامعة:

الذكر يحرر الوقت من الغفلة؛ لا بإلغاء أعمال الحياة، بل بإدخالها في نظام العبودية، وجعل مفاصل اليوم مواعيد رجوعٍ إلى الله. فمن ربّى وقته بالذكر لم يعد عمره كتلةً سائبةً تستهلكها الدنيا، بل صار أيامًا لها قبلة، وساعاتٍ لها معنى، ولحظاتٍ قابلةً أن تتحول إلى نورٍ باقٍ في ميزان الله.

وهكذا تتجلى آية ﴿**فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ في مقام الوقت:
اذكروني في صباحكم، أبارك بداياتكم.
اذكروني في مسائكم، أطهّر نهاياتكم.
اذكروني في أعمالكم، أحرس قلوبكم من الغفلة.
اذكروني في فراغكم، فلا يصير الفراغ بابًا للضياع.

اذكروني في أعماركم القصيرة، أفتح لكم من فضلي ما يجعل اللحظة المحدودة متصلةً بالباقي الذي لا يفنى.

فالوقت بلا ذكرٍ يتسرب من اليد كالماء.
والوقت مع الذكر يتحول إلى طريق.
ومن عرف قيمة الطريق، لم يرضَ أن يقطعه نائم القلب، مبعثر الروح، غريبًا عن ربه؛ بل يمضي ذاكرًا، لأن كل خطوةٍ في العمر إما أن تقرّبه من الله، أو تزيد غربته عنه.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

فهرس الكتاب

المُقَدِّمَةُ الكُبْرَى
حِينَ يَفْتَحُ اللهُ لِلإِنْسَانِ بَابَ الذِّكْر ... ٤

الفَصْلُ الأَوَّل
﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾: الوَعْدُ الَّذِي يَكْسِرُ عُزْلَةَ الإِنْسَان ... ٩

الفَصْلُ الثَّانِي
الذِّكْرُ لَيْسَ لَفْظًا عَابِرًا: كَيْفَ يُعِيدُ ذِكْرُ اللهِ بِنَاءَ المَشْهَدِ الدَّاخِلِيِّ؟ ... ١٦

الفَصْلُ الثَّالِث
مِنَ التَّشَتُّتِ إِلَى المَرْكَز: الذِّكْرُ وَتَوْحِيدُ وِجْهَةِ الوَعْي ... ٣٣

الفَصْلُ الرَّابِع
مِنْ سَطْوَةِ الأَنَا إِلَى رَحَابَةِ العُبُودِيَّة ... ٥٢

الفَصْلُ الخَامِس
الطُّمَأْنِينَةُ لَيْسَتْ تَخْدِيرًا: الذِّكْرُ بِوَصْفِهِ أَعْلَى دَرَجَاتِ اليَقَظَة ... ٦٧

الفَصْلُ السَّادِس
القَلْبُ لَا يَبْقَى فَارِغًا: تَحْرِيرُ المَسَاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنِ احْتِلَالِ العَالَم ... ٨٦

الفَصْلُ السَّابِع
حِينَ يُعِيدُ الذِّكْرُ تَعْرِيفَ الوَاقِع ... ١٠١

الفَصْلُ الثَّامِن
الذَّاكِرُ لَا يَعِيشُ وَحِيدًا: مَعْنَى الأُنْسِ بِاللهِ فِي عَالَمٍ مُوحِش ... ١١٧

الفَصْلُ التَّاسِع
الذِّكْرُ وَمُدَاوَاةُ القَلَق: كَيْفَ يَسْتَرِدُّ القَلْبُ سَكِينَتَهُ؟ ... ١٣٢

الفَصْلُ العَاشِر
الذِّكْرُ وَتَطْهِيرُ الذَّاكِرَة: مِنْ سُلْطَانِ الجُرْحِ إِلَى نُورِ العِبْرَة ... ١٤٧

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر
الذِّكْرُ وَتَرْبِيَةُ اللِّسَان: حِينَ تَصِيرُ الكَلِمَةُ مِفْتَاحًا لِلقَلْب ... ١٦٢

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر
الذِّكْرُ وَتَرْبِيَةُ الوَقْت: حِينَ يَصِيرُ العُمْرُ مَجَالًا لِلحُضُورِ لَا مَسَاحَةً لِلغَفْلَة ... ١٧٥